



المؤتمر العالمي العاشر للإعجاز العلمي في القرآن والسنة

# من الإعجاز البياني في القرآن الكريم

د. محمد محمد داود

أستاذ. م. علم اللغة بجامعة قناة السويس

عميد معهد معلمي القرآن الكريم بالمركز الإسلامي بالعمرائية

الخبير بمجمع اللغة العربية

## مقدمة

لم يحظ كتاب في الدنيا بالدراسات فيه وحوله مثلما حظي القرآن الكريم، بيد أنه على الرغم من استبحار الدراسات القرآنية ووفرتها، إلا أن القرآن الكريم لا يزال يستنهض الباحثين لمزيد من البحث في آفاقه الممتدة التي لا تقف عند نهاية: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مَدَادًا لَكَلِمَتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ نُنْفِدَ كَلِمَتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ (الكهف: ١٠٩).

وكل باحث - حسبما يتيسر له من أدوات بحثه - يكشف الله له جانبًا من أسرار كتابه العزيز الذي لا تنفذ أسرارته: ﴿وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ (الإسراء: ٢٠).  
ولمّا كان القرآن من الله الحكيم - وفعل الحكيم كلّ حكمة - وكل شيء عنده بقدر ومقدار؛ لذا وصف الله القرآن بالإحكام، قال تعالى:

﴿الرَّكَنُ أَهْكَمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَيْرٍ﴾ (هود: ١).

ومن ثمّ فقد نشطت الجهود لتتبع الظواهر اللغوية في القرآن الكريم، للكشف عن أسرار هذا الإحكام المعجز. ومن بين هذه الجهود هذا البحث - من الإعجاز الصوتي في القرآن الكريم - الذي وقفت فيه على الظواهر الصوتية التي تفرّد بها القرآن الكريم والتي تلفت الانتباه، ويظهر فيها وجه من وجوه الإعجاز.

**وقد صنفتها في سبع مسائل، هي:**

**الأولى:** أثر صوتيات القرآن في حفظ اللغة العربية واستقرارها.

**الثانية:** الإيقاع والنغم القرآني الخالد.

**الثالثة:** الفاصلة القرآنية قيمة صوتية ذات وظيفة دلالية.

**الرابعة:** التناسب بين صفات الصوت ومعنى الكلمة.

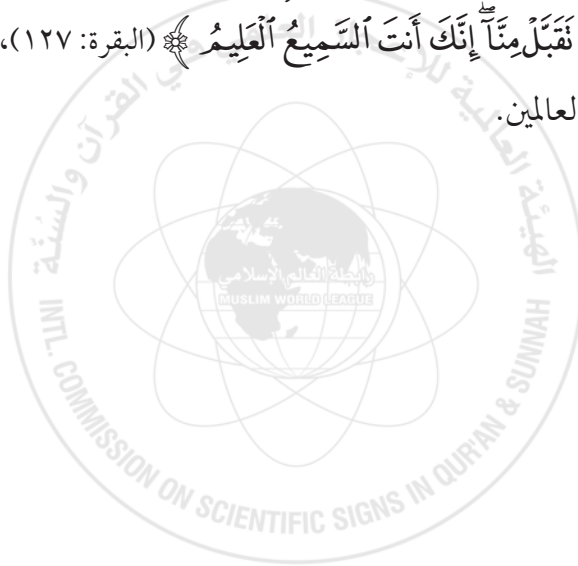
**الخامسة:** التناسب بين إيجاء الصوت ومعنى الكلمة.

**السادسة:** التناسب والتناسق بين نوع الحركة والمعنى.

**السابعة:** عولمة الصوت وعالمية النغم القرآني الخالد.

والله أسأل أن يوفقني فيه وأن ينفع به، ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾  
(هود: ٨٨). ﴿رَبَّنَا قَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (البقرة: ١٢٧)،

والحمد لله رب العالمين.



[www.eajaz.org](http://www.eajaz.org)

## المسألة الأولى: أثر صوتيات القرآن في حفظ اللغة العربية واستقرارها

التلقي الشفهي هو الأساس في تعلم القرآن الكريم، منذ نزل جبريل عليه السلام بالقرآن على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وحتى وقتنا الحاضر، وإلى أن تقوم الساعة. ولهذا الخاصية - المشافهة - آثار تصل إلى حد الإعجاز، لكنَّ إلف العادة هو الذي يمنعنا أو يجنب عنا ملاحظة نواحي الإعجاز. ولكن إذا ما قورنت العربية بغيرها من اللغات وما حدث لها، يظهر أثر القرآن في الاستقرار الصوتي للغة العربية وحفظها من الاندثار.

### حفظ اللغة العربية حية على السنة المسلمين في بقاع الأرض كلها:

#### أ. اندثار اللغات القديمة كلها، ما عدا العربية :

إن المتأمل في التاريخ يرى - بوضوح - لغات كثيرة قد اندثرت بموت أهلها، أو ضعفت بضعفهم؛ فأين اللغة الفينيقية - لغة أهل لبنان قديماً؟! - وأين اللغة الهيروغليفية - لغة أهل مصر؟! - والآشورية - لغة أهل بابل؟! -... إلخ.

إن ارتباط اللغة العربية بالقرآن الكريم جعلها محفوظة بحفظه، وباقية ببقائه، وسبحان الله القائل: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (الحجر: 9).

وبتأمل النظم القرآني في هذه الآية الكريمة نرى من وجوه الإعجاز:

- عدول الخطاب القرآني عن لفظ (القرآن)، واستعمال لفظ (الذِّكْر)، والمراد به هنا: القرآن؛ لإفادة معنى الحضور اللساني والذهني، في تناسب وتناغم مع معنى البقاء المعبر عنه بالحفظ.

استعمال أكثر من أداة من أدوات التوكيد: ( اسمية الجملة، إن، نحن، تضعيف الفعل نزلنا)، تكرار إن، اللام، تقديم الجار والمجرور "له" على المتعلق "لحافظون".

استعمال صيغة اسم الفاعل في (لحافظون) بدلالتها على الحاضر والمستقبل.

وكل هذه الأدوات تتآزر معاً لإفادة معنى البقاء والدوام والحضور وقوة التأثير لهذا الكتاب العظيم، والواقع يشهد بهذا، فالقرآن الكريم هو النص الوحيد الذي لم يتغير ولم يتبدل منه حرفٌ على تطاول العصور، وعلى امتداد رقعة البلاد الإسلامية في كافة أرجاء المعمورة.

ومن وسائل حفظ القرآن العظيم: حفظ لغته وبقاؤها حيّةً على ألسنة المسلمين أكثر من أربعة عشر قرناً من الزمان، من مهد الإسلام في جزيرة العرب إلى أقصى أطراف الأرض. كيف استطاعت هذه اللغة العبقريّة أن تصمد أكثر من أربعة عشر قرناً من الزمان، بينما اندثرت اللغات القديمة جميعاً، بل اندثرت لغات كانت حيّةً على الألسنة منذ أقل من أربعة قرون؟

من أمثلة تلك اللغات: اللاتينية التي انقسمت إلى لهجات تحوّلت فيما بعد إلى لغات مختلفة في ألفاظها وتراكيبها وبنيتها الكليّة. لقد كانت اللاتينية هي لغة الثقافة والعلم حتى وقت قريب، وكانت المؤلفات العلمية الكبرى تُكتب بها إلى عهد نيوتن (عاش في القرن الثامن عشر)، ومؤلفه الذي قلب موازين علم الفيزياء عنوانه: "Principia Mathematica" باللاتينية، أي: مبادئ الرياضيات.

ومع ذلك كانت اللاتينية حينئذٍ قد اندثرت تماماً، وصارت لغة أبراج عاجيّة، يكتب بها الفلاسفة والعلماء، ولكنها غائبة عن الحياة؛ لأنّ الألسنة لا تنطق بها.

ومثلها اللغات الدينية التي اندثرت - بموتها على الألسنة - وانحصر وجودها بين جدران المعابد والأماكن المقدسة، كالسريانية (الآرامية)، والعبرية القديمة، ولغات السيخ والهندوس والشتو وغيرها من لغات المعابد التي لا يعرفها سوى أفراد قليلين من كهنة المعابد.

على حين ظلت العربية صامدةً متجددةً عبر العصور، واتسع نطاق المتحدثين بها، الذين

هم عربٌ باللسان، وصدق النبي صلى الله عليه وسلم حين قال: "ليست العربية لأحدكم بأب ولا أم، ولكنها اللسان، فمن تكلم العربية فهو عربي"<sup>(١)</sup>.

وهذا أمرٌ مُشاهدٌ محسوس، فإنك لتجد الهندي أو الباكستاني أو الإيراني أو الأمريكي المسلم لا يعرف شيئاً عن قواعد العربية، فإذا ما تلا آيات الذكر الحكيم انطلق لسانه، وتخلّص من عجمته ولُكنته، وصارت أصواته واضحة كل الوضوح مطبوعة بالطابع العربي الخالص في صفات الأصوات ومخارجها.

**أفليس هذا وجهاً من وجوه الإعجاز الصوتي للقرآن الكريم؟!**

#### ب. الألفاظ القرآنية الخاصة:

من يدقق النظر في العربية المعاصرة يجد الكثير من الألفاظ التي هُجرت وظلَّ بقاؤها حيةً على الألسنة مقصوراً على الاستخدام الديني المرتبط بالقرآن.

وفي دراسة قمت بها عن الألفاظ الدالة على الكلام والاستخدام الديني في العربية المعاصرة<sup>(٢)</sup>، كان من الظواهر اللافتة للانتباه وجود مجموعة من الألفاظ ذات الدلالة الكلامية كادت تغيب عن الاستعمال المعاصر إلا في المجال الديني الإسلامي، عند شرح آيات القرآن التي وردت بها هذه الألفاظ، واستعمال هذه الألفاظ خارج مجال القرآن نادر ندرّة تصل إلى درجة العدم في الأعم الأغلب، وضيّق مجال الاستعمال واقتصره على المجال الديني الإسلامي هو الملاحظة الأولى.

**أما الملاحظة الثانية** فهي ثمرة للملاحظة الأولى، فقد ترتب على الاستعمال اللصيق بالقرآن لهذه الألفاظ استقرار دلالاتها حتى أصبحت تبدو مشابهة في استقرار دلالاتها للألفاظ الإسلامية الاصطلاحية: (الصلاة، الزكاة، الحج،.... إلخ).

وفيا يلي أمثلة مختارة من هذه الألفاظ مرتبة ترتيباً هجائياً، مع ذكر معناها الذي استعملت به في القرآن الكريم:

(١) أخرجه الخطيب البغدادي في الرواة عن مالك، وابن عساكر في تاريخ دمشق، ٤٠٧/٢١.

(٢) الدلالة والكلام: دراسة تأصيلية لألفاظ الكلام في العربية المعاصرة في إطار المناهج الحديثة / محمد محمد داود. القاهرة: دار غريب، ٢٠٠٢ م.

م	المادة	الصيغة الواردة	المعنى	الشواهد القرآنية
١	ث ج ج	ثجأجأ	شديد الانصباب	﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَاجًا ﴾ (النبا: ١٤)
٢	ث خ ن	أثخنتموهم يثخن	المبالغة في القتل	﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَتَخْتَمُوهُمُ فَثُدَّ وَالْوَتَاقَ ﴾ (محمد: ٤) ﴿ مَا كَانَتْ لِنَبِيِّ أَنْ يُكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُخْرَجَ فِي الْآرْضِ ﴾ (الأنفال: ٦٧)
٣	ث ر ب	ثرب	اللوم والتعير والتوبيخ	﴿ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ (١١)
٤	ج أ ر	تجأرون يجأرون تجأروا	رفع الصوت بالدعاء والتضرع	﴿ وَمَا يَكُم مِّنْ نَّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَالْتَبَيْتُمْ يُخْرُونَ ﴾ (النحل: ٥٣) ﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْحَرُونَ ﴾ (١٤) (المؤمنون) ﴿ لَا تَجْعَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُمْ مِنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴾ (٦٥)
٥	ج ب ت	الجبت	كل ما عُبد من دون الله، واستعمل في الصنم والكاهن والساحر.	﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ ﴾ (النساء: ٥١)

م	المادة	الصيغة الواردة	المعنى	الشواهد القرآنية
٦	خ ت ر	خَتَّار	عَدَّار	﴿وَمَا يَجْمَدُ بِأَيْدِينَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾ (٣٢) ﴿لَقَبَانِ﴾
٧	خ ر ص	تخرصون الخراصون	إلقاء القول عن ظن وتخمين	﴿إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ (١٤٨) ﴿الأنعام﴾ ﴿قُلِ الْخِرَاصُونَ﴾ (١٠) ﴿الذاريات﴾
٨	خ ض د	مخضود	مقطوع شوكة	﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ﴾ (٧) ﴿في سدرٍ مَحْضُورٍ﴾ (٢٨) ﴿وطلح مَنْضُورٍ﴾ (٢٩) ﴿الواقعة﴾
٩	خ م ص	مخمصة	مجاعة؛ لأن البطن يضم من شدة الجوع	﴿فَمَنْ أَضْطَرَّ فِي مَخْصَصَةٍ عَيْرٍ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمِهِ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٣) ﴿المائدة﴾، واللفظ في (التوبة: ١٢٠)
١٠	خ م ط	خَمَط	كل شجرة لها شوك وثمرتها مرة بشعة الطعم	﴿وَبَدَّلْنَاهُمْ بِحَبْنَتِهِمْ جَنَّاتٍ ذَوَاتِ أَكْمَلٍ خَمَطٍ وَأَثَلٍ وَشَيْءٍ مِّنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ (١١) ﴿سبأ﴾
١١	خ ن س	الخناس الخنس	الشیطان الذي يخنس ويتوارى عند ذكر الله. الكواكب السيارة؛ لأنها تختفي وتغيب	﴿مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ﴾ (٤) ﴿الناس﴾ ﴿فَلَا أُقِيمُ بِالْخَنَسِ﴾ (١٥) ﴿الجوار الكنس﴾ (١١) ﴿التكوير﴾



م	المادة	الصيغة الواردة	المعنى	الشواهد القرآنية
١٢	دع ع	يَدْعُ يُدْعُونَ	الدفع بعنف وغلظة	﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالذِّنِّ ﴿١﴾ فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ ﴿٢﴾ يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعَا ﴿١٣﴾﴾ (الطور: ١٣)
١٣	ر ف ث	رفث	الفحش في القول	﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَةٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ ﴿١٩٧﴾﴾ (البقرة: ١٩٧)
١٤	ش ن أ	شنان	بُغْض	﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا ﴿٢﴾﴾ (المائدة: ٢) ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴿٣﴾﴾ (الكوثر)
١٥	ض ب ح	ضَبْحًا	صوت أنفاس الخييل في جوفها حين تعدو	﴿وَالْعَدِيدِ ضَبْحًا ﴿١﴾﴾ (العاديات)
١٦	ض غ ث	ضغثًا أضغاث	ما جُمع وقُبِضَ عليه بالكف. أخلاط ملتبسة	﴿وَحَدِّ يَدَيْكَ ضَغْتًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ ﴿٤٤﴾﴾ ﴿قَالُوا أَضْغَتْ أَحْلَامُهُ وَمَا تَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ (يوسف)
١٧	غ ط ش	أغطش	أظلم	﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُغْبًا ﴿٣٩﴾﴾ (النازعات)
١٨	هي ت	هَيْتَ لَكَ	هَلُمَّ وَأَقْبِلْ	﴿وَرَوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَعَلَّقَتْ الْأَثْرَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ﴿٢٣﴾﴾ (يوسف: ٢٣)

هذا قليلٌ من كثير مما حفظه القرآن للعربية، وفي هذا أبلغ الدلالة وأقواها على أن كلمات القرآن الكريم هي التي كُتِبَ لها الحياة والخلود على مرّ الزمن، في حين أن الثروة اللفظية للعربية التي لم تُستعمل في القرآن الكريم قد أودعت في قرافة المعجمات في الأعم الأغلب.

ولا عجب من هذه الملاحظة التي تأكدت من خلال بحث قيم لعالمين فذّين أحدهما لغوي وهو أستاذنا الدكتور عبد الصبور شاهين، والآخر متخصص في علم الإحصاء وهو الدكتور علي حلمي موسى تحت عنوان "دراسة إحصائية لجذور معجم تاج العروس باستخدام الكمبيوتر"<sup>(١)</sup>، وكان من نتائج هذه الدراسة:

أن القرآن اصطفى ١٥٪ من جذور العربية هي أفضل وأيسر ما فيها، وأن جذور القرآن هي المادة المستعملة في اللغة العربية من أول الإسلام حتى الآن، وأما الـ ٨٥٪ من لغة الجاهلية فقد أصبحت في المعاجم لكنها لا تجري على ألسنة الناس في حياتهم.

أن جذور القرآن الكريم هي التي يجري بها فكر هذه الأمة منذ نطقت بعد رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم وبعد نزول القرآن إلى أيامنا هذه، وبحصر مفردات أي جريدة، أو بحث أو مقال، أو أي مادة مكتوبة؛ فإنها لا تخرج عن مادة القرآن إلا بمقدار ٢٪ فقط، وهذا يعني أن المادة الشائعة المهيمنة في الكتابات والأحاديث العربية هي مادة القرآن.

وتلتقي هذه الملاحظة مع ملاحظة ابن فارس في كتابه "الصاحبي" التي تقول: "إن القرآن فرض على الناس بياناً خاصاً، فهم يقولون في الشيء إذا وصفوه بالطول يقولون: طويل، ولا يقولون: أشق ولا أمق، وهما لا يردان في استعمال الناس"<sup>(٢)</sup>.

إذن فقد هيمن القرآن على هذه اللغة وكان سبباً في استقرار مادتها؛ لأن مادة القرآن نحفظها جيلاً بعد جيل، ونرُدّها بطريقة واحدة، وهذا هو السر في استمرار العربية ما يقرب من خمسة عشر قرناً حتى الآن وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها إن شاء الله تعالى.

فأي كتاب أو أثر أدبي أو غير ذلك كان له مثل هذا التأثير البالغ والهيمنة الدائمة على فكر

(١) دراسة إحصائية لجذور تاج العروس باستخدام الكمبيوتر / على حلمي موسى، عبد الصبور شاهين. الكويت: مطبوعات جامعة الكويت، ١٩٧٣ م.

(٢) الصاحبي في فقه اللغة العربية وسنن العرب في كلامها / ابن فارس؛ تحقيق مصطفى الشرييني. القاهرة: الهيئة

العامة لقصور الثقافة، ٢٠٠٣ م.

أمة نشرت حضارتها في ربوع الأرض من أدناها إلى أقصاها وعلى لسانها؟! إن الكتب المقدسة الأخرى - على الرغم من أثرها الكبير في نفوس أتباعها - لم يكن لها شيءٌ من هذا التأثير البالغ؛ لأنها تفوقت في المعابد، وانحصر استعمالها في أداء الشعائر الدينية وحسب، أمّا العربية - التي صاغها القرآن صياغة فريدة - فقد تحررت وانطلقت بها الألسنة وصار قُصارى جهد الكُتّاب الذين يكتبون بها أن يتلمّسوا قبساً من فصاحة القرآن وبعضاً من بلاغته وحسن تأليفه وتناغم كلماته وأصواته.

### استقرار اللغة العربية:

على الرغم من أن التطور سُنّة جارية في كل اللغات وأكثر مظاهره يكون في الدلالات، إلا أن العربية ظلت محتفظة بكل مستوياتها اللغوية (صوتية - صرفية - نحوية - دلالية)، وما تطور منها كان في إطار المعاني الأصلية وبسبب منها.

ويزداد إدراك أهمية الاستقرار اللغوي الذي تتميز به العربية إذا ما تأملنا التغيّر السريع الذي يلاحق اللغة الإنجليزية (لغة الحضارة المعاصرة)، فنصوص الإنجليزية القديمة التي مر عليها قرابة ثلاثة قرون أصبحت عصيّة على الفهم بالنسبة للإنجليزي المعاصر.

يضاف إلى ذلك ما نشرته مجلة نيوزويك باللغة العربية تحت عنوان " تراجع الإنجليزية الفصحى الراقية على مستوى العالم والإحساس بالخطر من سرعة تغيرها"، ويتساءلون في فَرَضِيَّة علمية لها ما يبررها: هل نحن (علماء الإنجليزية) أمام لغة جديدة؟<sup>(١)</sup>

ولعلّ هذا التغيّر السريع هو الذي دفع علماء هذه اللغة إلى إعادة صياغة النصوص الأدبية المهمّة عندهم (مثل نصوص شكسبير) بإنجليزية حديثة Modern English يفهمها المعاصرون بدلا من الإنجليزية القديمة Old English.

في حين أن العربي المعاصر يقرأ آيات القرآن الكريم فلا يحس معها بغرابة؛ ويكفي النظر إلى هذه الآيات: ﴿وَالْعَصْرِ ١ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ ٣﴾ (العصر).

(١) نيوزويك، مارس ٢٠٠٥ م. — (عدد ٢٢)، ص ٥٤.

لتأمل هذه السلسلة السائدة في السورة، وذلك الوضوح الدلالي مع عمق المعاني، وذلك التناسق الصوتي المتمثل في ختم الآيات بفاصلة الراء المقفلة بالسكون، وتكرار حرف الصاد بها فيه من تفخيم يتناسب وفخامة المقول، ويزيد من علو طبقة الصوتية مجاورة الراء المفخمة.. هذا إلى التدرج في طول الجمل بحيث توحى بالانتقال بالخطاب من الشدة والقوة والفخامة البالغة في الآية الأولى (والعصر) إلى درجة أخف في الآية الثانية، ثم تُختم السورة بأطول آياتها، وكأن في ذلك إشارة إلى اللين والرفق بالمؤمنين الذين عملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر... إنك لتشعر مع هذا الامتداد والهدوء بزمان ممتد طويل يملؤه المؤمنون بعمل الصالحات واستمرار التواصي بالحق والتواصي بالصبر.

إن الجملة القرآنية تتألف من كلمات وحروف ذات أصوات يستريح لتألفها السمع والصوت، والنطق، ويتكون من اجتماعها على الشكل الذي رتبت عليه، نسق جميل ينطوي على إيقاع جلي رائع، ما كان ليتم إلا بالصورة التي جاءت عليها الآيات، وأي وجه من التغيير أو التبديل أو النقص أو الزيادة يضع مع هذا الجمال والإبداع القرآني.

#### تأمل قوله تعالى:

﴿فَفَنَحْنَا أَيْتَانَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّهِمِرٍ ۝۱۱ وَفَجَرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدَرٍ ۝۱۲ وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ الْوَجِّ وَدُسِّرِ ۝۱۳ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفْرًا ۝۱۴﴾ (القمر)

وتأمل تناسق الكلمات في كل جملة منها، ثم دقق نظرك وتأمل تألف الحروف الرخوة مع الشديدة ومع المهموسة والمجهورة وغيرها، ثم أمعن في تألف الحركات والسكنات والمدود وتعاطفها مع بعضها، فإنك إذا تأملت في ذلك علمت أن هذه الجملة القرآنية إنما صُبت من الكلمات والحروف والحركات في مقدار، وأن ذلك إنما قُدِّر تقديرًا بعلم اللطيف الخبير، وهيئات للمقاييس البشرية أن تقوى على ضبط الكلام بهذه القوالب الدقيقة<sup>(١)</sup>.

ولذلك فإنه على الرغم من مرور أكثر من أربعة عشر قرنًا، لا يكاد الإنسان يجد صعوبة في التواصل مع كلمات القرآن، وذلك في كل المستويات اللغوية: (الصوتية، والصرفية،

(١) كمال اللغة القرآنية / محمد محمد داود. - ط ١. - القاهرة: دار المنار، ٢٠٠٧م، ص ٢١٠، ٢١١.

والنحوية، والدلالية<sup>(١)</sup>، وهذه ميزة عظيمة: أن تكون الأمة موصولةً بتراتها الزاخر تفيد منه وتنتفع به.

وتأملُ مزية استقرار اللغة العربية التي تفردت بها عن سائر اللغات التي تغيرت وتبدلت تغيُّراً وتبدُّلاً جعل من اللغة الواحدة لغاتٍ كثيرةً متباينة - يجعلنا نتساءل:

### ما السبب وراء هذه المزية؟

هل يمكن إرجاع هذه الميزة إلى أن اللغة العربية كانت لغة عالمية فيها كل ما تفتقر إليه الأمم في كل الأزمنة والأمكنة من ألفاظ ومعانٍ وأحيلة، بحيث يجد الناس فيها ما يفتقرون إليه؛ لذلك فهم يحرصون عليها؟!

وهذا بعيد؛ فما كانت اللغة العربية ولا غيرها كذلك.

أم أن مزية استقرار اللغة العربية ترجع إلى أهلها ومكانتهم الاجتماعية والسياسية والعلمية؟! والواقع يُكذِّب ذلك؛ فقد كان أهل العربية في وضع متأخر الشأن بجوار حضارتين عظيمتين هما حضارتا الفرس والروم، وفي حياتنا المعاصرة تتلاحق الهزائم سياسياً واقتصادياً وعسكرياً على العرب.

وهكذا ينتهي بنا التأمل إلى أننا لا نجد سبباً مقنعاً لهذه المزية سوى أنها أثر من آثار القرآن الكريم، ووجه من وجوه إعجازه.

www.eajaz.org

### تهذيب اللغة العربية (تنقية صوتية):

لقد نَحَى القرآن الكريم عن اللغة التَّقَرُّر في الكلام، والألفاظ الحَوْشِيَّة الثَّقِيلَة على السمع، إن من يتأمل النثر أو الشعر الجاهلي يرى كثيراً من الكلمات الحَوْشِيَّة، من ذلك: "جحيش"، و"مستشزرات"، و"جحلنجح"، و"البخصات"، و"المطاط" وغير ذلك كثير.

من ذلك أيضاً ما رواه القالي في أماليه لأبي محمَّد الشيباني في أواخر القرن الثاني من كتاب

Holes: Clive Modern Arabic: Structure Functions and Varieties.- London: (١) Longman, 1995-343p.

له إلى بعض الحذائين في نعل.. قال هذا المتقعر: " دنها، فإذا هَمَّتْ تأتدن، فلا تخلِّها تُمرِّخد، وقَبْلَ أن تَفْعَلَ، فإذا اتَدَدَتْ فامسحها بخرقة غير وكيّة ولا جشيّة، ثم امعسها معسار قيقًا، ثم سنّ شفرتك، وأمّها، فإذا رأيت عليها مثل الهبوة فسِنِّ رأس الإزميل" .. إلخ.

وانظر قول القائل:

فاحذر ولا نكتر كريباً أغوجاً

علجاً إذا ساق بنا عفنججاً!

وتأمل تكرار صوت الكاف والعين والجيم على مسافات متقاربة؛ مما يثقل على السمع واللسان، حتى يضيق به الناطق ويمجّه السامع وتنبو عنه القلوب.

وتكفي نظرة إلى ديوان أي شاعر أو راجز من العصر الجاهلي، لنرى إلى أي مدى كان أثر القرآن الكريم بالغاً في تصفية أصوات اللغة وتقيتها؛ وإليك مثالا مما أورده صاحب "نظام الغريب في اللغة" لكلمة معروفة للعرب قاطبة هي "اللبن"، ومن مرادفاتها:

لبن أمهجان، وأمّهج بالفتح وأمّهوج أيضاً: اللبن الخالص. والماضر: اللبن الحامض ومنه سُميت المضيرة، ومثله الخائر. والضياح: اللبن الممزوج بالماء. والرسل: اللبن الحليب نفسه. والمذيق: اللبن الممزوج بالماء، والصريح الخالص منه. والعجالط والعجلط: الرائب الغليظ. والرؤية بغير همز: اللبن الحامض الذي قد رُوب به الحليب. والعكّي بتشديد الياء: اللبن الحامض. والهجمة والهجمة: اللبن قبل أن يحمض. والحاذر: اللبن الحامض، فإذا تقطع وصار اللبن ناحية والماء ناحية فهو مُمْدَقَر، فإن تكبّد بعضه على بعض وحمض فلم يتقطع فهو إذك. والعثلط والهذب: ما خثر منه وتلبّد. والصقّر: أحض ما يكون من اللبن، فإذا صبّ عليه حليب فهو الرائثة والمرضة. والعكيس: اللبن الحليب يُصب على مرق. والنخيسة: لبن الضأن يُصب على لبن المعز. والصحيرة: الحليب المسخن حتى يحترق. والسّمهج والسّملاج: اللبن إذا كان حلواً دسماً. والملعاز والملهاز: اللبن يختلط بعضه ببعض عند المخض. والصرب والصرب: أحض ما يكون من اللبن. والسجاج: أرق ما يكون من

اللبن، والمَهُو والمَسْجُور مثله. والنَّسْء: الحليب إذا مزج بالماء، والنَّسِيُّ مثله<sup>(١)</sup>.  
بينما اكتفى القرآن الكريم بكلمة واحدة هي (اللبن)، ولا عجب أن غابت كل تلك  
الكلمات الحوشية والغريبة عن واقع الاستعمال اللغوي، وبقيت الكلمة القرآنية.  
لقد كان القرآن بمثابة غربال لأصوات العربية، ومصفاة لها أخرجت منها ما ينبو عنه  
السمع وما يثقل على اللسان، والناظر في هذا الكتاب الكريم يجد بين دفتيه أمثلة ناصعة  
للنقاء الصوتي والسلاسة وتجسيد المعنى عن طريق الصوت بصورة إعجازية لا نجد لها  
مثيلاً في أرقى مستويات الفصاحة اللغوية لهذه اللغة.  
كذلك نَحَى القرآن الكريم كثيراً من الألفاظ التي تعبر عن معانٍ لا يُقَرُّها الإسلام: من  
ذلك:

- « **المُرْبَاع** » : وهو ربع الغنيمة الذي كان يأخذه الرئيس في الجاهلية.
- « **النشيطه** » : وهي ما أصاب الرئيس قبل أن يصير إلى القوم، أو ما يغنمه الغزاة في  
الطريق قبل بلوغ الموضع المقصود.
- « **المَكْس** » : وهي دراهم كانت تؤخذ من بائعي السلع في الأسواق الجاهلية.  
وفي هذا سُمُو لغوي يتوازي مع السُمُو الخُلُقِي الذي أتى به القرآن الكريم.

www.eajaz.org

(١) نظام الغريب في اللغة / عيسى الربيعي، ص ٦١: ٦٥.



## المسألة الثانية: الإيقاع والنغم القرآني الخالد

دُهِشَ العرب حينما سمعوا القرآن، وتَحَيَّرُوا في أمر هذا الكلام الذي تستلذه الأذان وتستخفه الألسنة وتقعشعُر منه الجلود وتطمئنُّ به القلوب، ومَبَعَثَ حيرتهم ودهشتهم يعود - في جانب منه - إلى هذه الخصائص الصوتية الفريدة للقرآن، وقد جسَّد الوليد بن المغيرة هذه الحيرة حين قال يصف القرآن في مقولته المشهورة: والله لقد وضعته على أقرء الشعر فما هو بالشعر، وما هو بالسجع ولا الكهانة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه لِيَعْلُو ولا يُعْلَى عليه.

في هذه الكلمة يتجسَّد ما تَمَلَّك هذا الرجل وغيره من العرب لَمَّا سمعوا القرآن الكريم فقد اهتزت قلوبهم وهيمن الصوت القرآني على مشاعرهم، وتَحَيَّرُوا في شأن هذا النغم الفَيَّاض - من أين يأتي؟! إنه ليس بشعر؛ لأنه لا يتفق مع أوزان الشعر وطرائق نظمه، وليس بسجع متوازن كسجع الكهان، ومع ذلك تنساب أنغامه انسياباً في عذوبة وسلاسة وتآلف عجيب، وكأنه تيار موسيقي تتفجر منه النغمات من أعلاه ومن أسفله على حد قول الوليد، ولعل من بين ما تدل عليه عبارته: عمق التناسق بين أنغامه العالية القوية وبين أنغامه الرقيقة الهادئة المناسبة.

والنغم القرآني ينبعث من أصواته، وحسن جرسه، وتآلف ألفاظه، وطرائق الأداء المعروفة في فن التجويد منذ عصر النبوة، ويشهد لهذا ما رواه أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: " ما أذن الله لشيء ما أذن للنبي أن يتغنَّى بالقرآن "(١).

والتغنِّي بالقرآن يعني تجويده، باعطاء كل صوت من أصواته ما يستحق من صفات وامتداد وعمق وتلوين؛ حتى يظهر المعنى وطلال المعنى في وضوح تام، وفي أداء جمالي ممتع للسمع والفؤاد. وليس من قبيل الصدفة أن القرآن الكريم قد أنزل على قلب محمد صلى الله عليه وسلم.. إنه خطاب إلى القلب؛ ولذلك كان للإيقاع فيه نصيب كبير، قال الله تعالى:

﴿ قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ، عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ (البقرة: ٩٧).

والإيقاع القرآني يهز القلوب ويأخذ بمجامعها؛ ولذلك كان للنبي صلى الله عليه وسلم عند سماع القرآن أحوال، فمرة يرتجف، وتارة ينبسط... وهكذا بحسب المعاني التي

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٤٦٣٦).



تتضمنها الآيات والإيقاع المصاحب لها، وقد ارتبط أداء القرآن الكريم بالمقامات الموسيقية العربية كالبياطي والنهاوند والرّست والحجاز والصّبا وغيرها، ولكل مقام من هذه المقامات طرق عديدة وأساليب متباينة في إبراز وجوه النغم القرآني المتنوّع والفريد.

وينبعث النغم القرآني من توالي المقاطع الصوتية على مسافات منتظمة متقاربة، بما يمنح الأذن إحساساً بالتوازن الإيقاعي، دون رتابة أو جمود كالذي نُحسُّ به حين نسمع الأسجاع المتماثلة في مقاطعها، فالنغم القرآني متوازن الإيقاع ومتجدّد في آن واحد؛ لتنوع الفواصل أو المسافات الفاصلة بين مواضع النبر في الكلمات، واختلاف الكلمات طولاً وقصراً.

هذا بالإضافة إلى تلوين الأداء القرآني وتحسينه عن طريق المدّ والغنة والسكّت القصير والسكون، وغير ذلك من خصائص التلاوة القرآنية التي تضيف إلى عظمة النغم القرآني توازن الإيقاع، فتجويد القرآن يشتمل إلى جانب إعطاء الأصوات حقّها على أمور أخرى، منها: المد بأنواعه والغنة والسكّت وما إلى ذلك مما يُعدُّ من قبيل الانقطاع المؤقت لتوالي الأصوات التي تتكون منها الألفاظ. فإذا قرأ القارئ مع الترتيل أتى بكل رتل وآخر وبينهما فترة انقطاعه إما مد أو غنة أو سكت إلخ..

هذا النوع من الترتيل يضيف إلى إيقاع القرآن الكامن في نظمه إيقاعاً آخر طارئاً عليه من خلال الأداء والقراءة، فإذا اجتمع الإيقاع الصوتي وذلك الإيقاع الترتيلي لم يكن للأذن إلا أن تستمع وتنصت وتستمتع بالجمال، وسبحان الله و تعالى إذ يقول لعباده المؤمنين:

﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (الأعراف ٢٠٤) (١)

كما أن القراء المجيدين إبراز المعاني القرآنية صوتياً عن طريق التنغيم؛ أي رفع الصوت وخفضه وتلويته بألوان مختلفة تعبّر عن الفرح، أو الحزن، أو الخوف، أو الدهشة، أو التعجب، أو الغضب، أو الرضا... إلخ.

## الإيقاع في العربية:

مصطلح الإيقاع في العربية مستمدٌّ من وَفَع المطر. وهو في عرف أهل اللغة عبارة عن "اتفاق الأصوات والألحان وتوقيعها في الغناء أو العزف" (٢).

(١) البيان في روائع القرآن / تمام حسان، ج ١، ص ١٨٩، ١٩٠.

(٢) المعجم العربي الحديث / لاروس، ١٩٧٣م، ص ٢٠٥. لسان العرب / ابن منظور. — ط ٣. — بيروت: دار صادر، [www.eajaz.org](http://www.eajaz.org)

والإيقاع غير الوزن، ومن المناسب أن نشير - هنا - إلى الفرق بينهما، إذ طالما اختلط الأمر بشأنيهما؛ ذلك أن الوزن عندما يتمثل لدى بداية تركيب ما، فإنه "لايفتأ فائماً دون أن يصيبه تغيير إلى نهايته، مثله مثل الشكل الميكانيكي؛ في حين نجد أن الإيقاع خَلَقَ جمالي مُحضٌ"<sup>(١)</sup>.

## الإيقاع في القرآن:

من دوافع الاهتمام بإيقاعية القرآن الكريم: خروج هذه الإيقاعية عن منظومة أشعار العرب وما أَلْفُوهُ فيها، حيث وجدوا أنفسهم أمام ظاهرة متمثلة في "اتساق القرآن، واتلاف حركاته وسكناته، ومدّاته، وغنّاته، واتصالاته، وسكّاته، ذلك ما يسترعي الأسماع، ويستهوِي النفوس بطريقة لا يمكن أن يصل إليها أي كلام آخر من منظوم أو منشور"<sup>(٢)</sup>.

إن السمات البارزة في بنية الخطاب القرآني، هي ذلك الترتيب في الحروف باعتبار من أصواتها ومخارجها، ومناسبة كلٍّ للآخر مناسبةً طبيعية: همساً وجهرًا، شدة ورخاوة، تفخيماً وترقيقاً، تفشياً وتكراراً.

وإذا ما رُمْنَا تَمَثَّلَ ذلك بأذاننا؛ بل بوجدانا وإحساساتنا، فلنستمع إلى مطلع سورة العاديات وهي تُتلى علينا؛ فما من شك أن أول ما يطرق آذاننا هو تلك الحركات والطرق المتواليات، كما تفعل "الخيول" حال ركضها قلباً بقلب، فلا ريب أن الألفاظ تفعل فينا ما هو أجمل وأجل من السّحر بمنتهاياتها المتماثلة في قوله تعالى: ﴿وَالْعَدِيَّتِ صَبْحًا ١﴾ فَالْمُورِيَّتِ قَدْحًا ٢﴾ فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا ٣﴾ فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا ٤﴾ فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا ٥﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ٦﴾ وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ٧﴾ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ٨﴾ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعِثَ رَافِعًا ٩﴾ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ١٠﴾ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ١١﴾

ويؤكد الرافي أن المدار في هذه السورة قائم بشكل جليٍّ ومسموع على خاصية الإيقاع؛

١٩٩٤م، مادة: وقع.

(1) Jean Cohen, Structure du Langage poetique, Flammarion, Paris. 1966. P. 42.

(٢) التعبير الفني في القرآن / أمين بكرى شيخ . ط ٤ . - القاهرة : دار الشروق ، [ د . ت . ] ، ص ١٨٥ : ١٩٨ .

فيقول: "ولو تدبرت ألفاظ القرآن في نظمها، لرأيت حركتها الصرفية واللغوية تجري في الوضع والتركيب مجرى الحروف أنفسها فيما هي له من أمر الفصاحة، فيهيئ بعضها لبعض، ويساند بعضها بعضاً، ولن تجدها إلا مؤتلفة مع أصوات الحروف، متساوقة معها في النظم الموسيقي، حتى إن الحركة ربما كانت ثقيلة في نفسها لسبب من أسباب الثقل أياً كان؛ فلا تعذب ولا تُساع، ربما كانت أو كس النصيين في حظ الكلام من الحرف والحركة؛ فإذا هي استعملت في القرآن رأيت لها شأنًا عجيبيًا، ورأيت أصوات الأحرف والحركات التي قبلها قد امتهدت لها طريقًا في اللسان، واكتفتها بضروب من النغم الموسيقي، حتى إذا خرجت فيه كانت أعذب شيء وأرقه<sup>(١)</sup>".

ومصطفى صادق الرافعي إذ يؤكد هذه الخصيصة لم يفتأ يُقدّم الشاهد تلوّ الآخر على ما يذهب إليه، ومن ذلك إirاده للفتحة: (النذر). وفي ذلك يقول: "فإن الضمة ثقيلة فيها - أي لفتحة النذر - لتواليها على النون والذال معاً، فضلاً عن جساءة هذا الحرف - صلابته أو صعوبة النطق به - وبُؤّه في اللسان، وخاصة إذا جاء فاصلة للكلام، فكل ذلك مما يكشف عنه ويفصح عن موضع الثقل فيه، ولكنه جاء في القرآن على العكس، وانتفى من طبيعته في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ﴾ (القمر: ٣٦).

فتأمل هذا التركيب، وأنعم ثم أنعم على تأمله، وتدوّق مواقع الحروف، وأجر حركاتها في حسّ السمع، وتأمل مواضع القلقلة في دال (لقد)، وفي الطاء من (بطشتنا)، وهذه الفتحات المتوالية فيما وراء الطاء إلى واو (تماروا)، مع الفصل بالمد... ثم ردّ نظرك في الراء من (تماروا)، فإنها ما جاءت إلا مساندة لراء (النذر)، حتى إذا انتهى اللسان إلى هذا انتهى إليها من مثلها، فلا تجفو عليه ولا تغلظ، ثم أعجب لهذه الغنة التي سبقت الطاء في (أنذرهم)، وللغنة الأخرى التي سبقت الدال في (النذر)<sup>(٢)</sup>.

ونرى سيد قطب لا يكتفي بالتلويح إلى احتواء النظم القرآني على الإيقاعية من باب

(١) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية / مصطفى صادق الرافعي ط ٩ . بيروت : دار الكتاب العربي، ١٩٧٣م، ص ٢٢٧.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٢٧، ٢٢٨.

وصفها السطحي؛ وإنما نلفيه في الكثير من المرات يقف وقفة المتأمل في هذه الخصيصة التي امتاز بها القرآن، ومنتبعا لأسرارها وحقائق تواجدها بشكلها المتميز، وهو لذلك يقول: " فأما تنوع أسلوب الموسيقى وإيقاعها بتنوع الأجواء التي تُطلق فيها؛ فلدينا ما نعتمد عليه في الجزم بأنه يتبع نظاما خاصا، وينسجم مع الجو العام باطراد لا يستثنى<sup>(١)</sup> ."

وهو - أيضا - يحاول الربط بين جو النص القرآني والإيقاع؛ فيرى بعد تفحص وإمعان أن ذلك الإيقاع ما هو إلا انعكاس للجو العام الذي يطبع الخطاب المُدرج فيه، فهو يرى أن جو سورة (النازعات) أشبه بالزلازل الكبير الذي يُفقد كل شيء توالزنه، وتترادف مزعجاته، فإذا القلوب مضطربة والأبصار كسيرة، "ذلك الجو سريع النبض، شديد الارتجاج، والذي ينسجم تمام الانسجام مع إيقاعها، حيث هذه المقطوعة سريعة الحركة، قصيرة الموجة، قوية المبني<sup>(٢)</sup> ."

كما أنه يرى في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ أَرَأَيْتُمْ لِي رَبِّ لَعَنُورٌ رَّحِيمٌ ٤١﴾ وهي تجرى بهم في موج كالجبال ونادى نوح ابنه، وكانت في معزل يئبى أركب معنا ولا تكن مع الكافرين ٤٢﴾ قال ساوى إلى جبل يعصمني من الماء قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم وحال بينهما الموج فكان من المعرضين ٤٣﴾

يرى فيه ذلك الجو المفعم بالرعب والهول والفرع، والذي ينسجم تمام الانسجام مع إيقاع هذا المقطع القرآني، حيث "إن التكوين الموسيقي للجمله ليذهب طولا وعرضا في عمق وارتفاع، ليشارك في رسم الهول العريض العميق، والمدات المتوالية المتنوعة في التكوين اللفظي للآية تساعد في إكمال الإيقاع وتكوينه واتساقه مع جو المشهد الرهيب العميق<sup>(٣)</sup> ."

ومن ذلك أيضا ما ذكره الشيخ محمد الغزالي عند تفسير قوله تعالى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ ١٠﴾ إذ يقول: "وكنْتُ أسمع هذه الآيات من فم قارئ ندى الصوت وقف على

(١) التصوير الفني في القرآن / سيد قطب . ط ١ . القاهرة : دار الشروق ، ١٩٨٨ م ، ص ١١٠ .

(٢) المرجع السابق، ص ١١١ .

(٣) المرجع السابق، ص ١١٣ .

كلمة (مغلوب) وأطال مدّ الواو ستّ حركات مليئة بالقهر والضراعة والاستنجاد، حُيِّلَ إليَّ أنها امتلأت بآلام تسعة قرون ونصف من جهاد الدعوة وفشل الاستجابة، ونظرتُ حولي فرأيت الدموع تطفّر من الأعين رقةً لعبودية نوح واسغاثته" (١).

ويشير الدكتور صبحي الصالح إلى الإعجاز في نعم القرآن بقوله: "إن هذا القرآن - في كل سورة منه وآية، وفي كل مقطع منه وفقرة، وفي كل مشهد منه وقصة، وفي كل مطلع منه وختام - يمتاز بأسلوب إيقاعي غنيّ بالموسيقى، مملوء نغمًا، حتى ليكون من الخطأ الشديد في هذا الباب أن نفاضلَ بين سورة وأخرى، أو نُوازنَ بين مقطع ومقطع، لكننا حين نوميء إلى تفرّد سورة منه بنسق خاص، إنما نقرر ظاهرة أسلوبية بارزة نوّكدها بالدليل، وندعمها بالشاهد، مؤكّدين أن القرآن نسيج واحد في بلاغته وسحر بيانه، إلا أنه متنوعٌ متنوعٌ موسيقى الوجود في أنغامه وألحانه!" (٢).

وعن اللفظة القرآنية يقول الدكتور صبحي الصالح: "تكاد تستقل - بجرسها ونغمها بتصوير لوحة كاملة؛ فيها اللون زاهياً أو شاحباً، وفيها الظل شفيفاً أو كثيفاً... وحين تتسمع همس السين المكررة تكاد تستشف نعومة ظلها مثلما تستريح إلى خفة وقعها في قوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنُفِ ۝١٥ الْجَوَارِ الْكُنُفِ ۝١٦ وَاللَّيْلِ إِذَا عَسَسَ ۝١٧ وَالصُّبْحِ إِذَا نَنَفَسَ ۝١٨﴾ (التكوير).

وتقرأ قوله تعالى: ﴿فَمَنْ زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأَدْخِلَ أَلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ (آل عمران: ١٨٥)، فلا ترى في المعجم غير كلمة "زحرح" تُصوّر مشهد الإبعاد والتنحية، بكل ما يقع في هذا المشهد من أصوات.. وما أحسب شفتيك إلا منطبقتين استقباحاً واستهجاناً لحال الكافر الذي يتجرع صديده ولا يكاد يسيغه، في قوله تعالى: ﴿وَيُسْقَىٰ مِنْ مَّاءٍ صَدِيدٍ ۝١٦ يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ﴾ (إبراهيم).

ولا أحسبك إلا مستشعراً عنف لفظة الككببة في قوله تعالى: ﴿فَكَبُكُورًا فِيهَا هُمْ

(١) نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم/ الشيخ محمد الغزالي... ط ٨، القاهرة: دار الشروق، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م، ص ٤١٩، ٤٢٠.

(٢) مباحث في علوم القرآن / صبحي الصالح . - القاهرة: مكتبة وهبة، ٢٠٠٤م، ص ٣٣٤.

وَالْغَاوُونَ ﴿الشعراء: ٩٤﴾، حتى لتكاد تتصور أولئك المجرمين يُكَبُّون على وجوههم أو على مناخرهم، ويُلقَوْنَ إلقاءً المهملين، فلا يقيم أحد لهم وزناً! (١).

ويشير الدكتور محمد عبد الله دراز إلى التفرد في النظم الصوتي للقرآن قائلاً: "أول ما يلاحظ عليك ويستدعي انتباهك من أسلوب القرآن الكريم، خاصية تأليفه الصوتي في شكله وجوهه (٢)".

ويضيف الدكتور دراز: "دع القارئ المُجَوِّد يقرأ القرآن يرتله حقَّ ترتيله نازلاً بنفسه على هوى القرآن، وليس نازلاً بالقرآن على هوى نفسه، ثم انتبهْ منه مكاناً قصياً لا تسمع فيه جرس حروفه، ولكن تسمع حركاتها وسكناتها، ومداتها وغماتها، واتصالاتها وسكناتها، ثم ألق سمعك إلى هذه المجموعة الصوتية وقد جردت تجريداً وأرسلت ساذجةً في الهواء، فستجد نفسك منها بإزاء لحن غريب لا تجده في كلام آخر لو جرد هذا التجريد وجود هذا التجويد (٣)".

إن موسيقى القرآن وإيقاعه لا ينبعان من جرس الحروف والكلمات، ولا من تجانس الأصوات والتراكيب فحسب، بل من هذا التآزر بين الصوت والمعنى، بين الأنغام الخارجية والنغم الداخلي المنبعث من المعاني وظلالها المرهفة الباعثة على التأمل العميق والتدبر المتأنى لكلماته وآياته، فترتعد لوقعه القلوب، وتقشعر الجلود، ثم تلين وترق خاشعة لذكر الله، قال تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ نَقَشَهُ مِنْهُ جَلُودٌ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلَيْنُ جُلُودَهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ (الزمر: ٢٣).

(١) المرجع السابق، ص ٣٣٥، ٣٣٦.

(٢) النبأ العظيم: نظرات جديدة في القرآن / محمد عبد الله دراز . ط ٦ . الكويت : دار القلم ، ١٩٨٤م ، ص ١٠١ .

(٣) المرجع السابق، ص ١٠١، ١٠٢ .



## المسألة الثالثة: الفاصلة بين التناسق الصوتي ورعاية المعنى

أودُّ هنا - بدايةً - توضيح ملاحظة تتصل بأدب السلف الصالح، حيث أطلقوا على نهايات الآيات القرآنية تسمية "رءوس الآيات"، تمييزاً لها عن مصطلحات الشعر والنثر، ففي الشعر نقول: صدر البيت وعجزه، وفي النثر نقول: بداية الجملة ونهايتها، فبداية الآية عندهم كنهايتها: رأس، أي مستوى من الارتفاع والارتقاء لا ينتهي ولا يهبط أبداً، والوقف عند الرأس يشعر بأن آيات القرآن قمم يرقى القارئ إليها، وكلما مضى في القراءة ازداد رقيّاً، فهو صاعد أبداً، حيث يقال لقارئ القرآن: "اقرأ وارْقَ، ورتّل كما كنت ترتل في الدنيا؛ فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها<sup>(١)</sup>".

ومعلوم أن رءوس الآيات توقيفية، أي كما جاءت بالتلقي عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم. والملاحظ في رءوس الآيات النغم الصوتي الذي يلفت الانتباه وتستريح له الأذن إلى حد يأخذ بالنفس، ولعله كان أحد الأسباب التي جعلت الوليد يقول بعد سماعه القرآن الكريم: "إن له حلاوة وإن عليه لطلاوة"، وهما من حسّ اللسان وحسّ الأذن.

وإذا ما حاولنا الكشف عن الظاهرة بأسلوب علمي، وذلك بتتبع أصوات الحروف والحركات التي تُكوّن هذه الفواصل بهذا التناسق الصوتي المبدع، فإننا نلاحظ التالي:

كثرة الحركات، وبخاصة الطويلة (حروف المد: الألف والواو والياء)، بما لها من نغمات منتظمة تسيطر على لحن الكلام.

كثرة ورود الصوامت المتوسطة (النون، الميم، الراء، الواو، الياء)، وهي قريبة - من الناحية الفيزيائية - إلى طبيعة الحركات، التي تسهم في خاصية التنغيم الشجيّ بشكل واضح.

يُدعّم هذا ظواهر صوتية خاصةً بالقرآن كالمَدِّ والغَنَّة، وكل هذه العناصر الصوتية لا تكون بهذا التناسب الفريد في غير القرآن من فنون الشعر والنثر.

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٦٥٠٨)، والنسائي في سننه (٨٠٥٦)، وابن حبان في صحيحه (٧٦٧)، وقال الألباني في صحيح الترغيب والتهذيب: حسن صحيح (١٤٢٦).

**سؤال اعتراضى:** هل هذا التناسب الصوتي هو من قبيل السجع، حيث يتوالى الكلام المنثور على حرف واحد؛ ليكتسب النثر ضرباً من الموسيقى والنغم؟ أم هو من قبيل القافية في الشعر؟

**والجواب:** لا هذا ولا ذاك؛ فالفاصلة في القرآن ليست على وتيرة واحدة، كما هو الحال في كل من السجع والقافية، فهي لا تلتزم شيئاً من ذلك، حيث تجري في عدد من آيات القرآن على نمط، ثم تتحول عنه إلى نمط آخر، ومن خلال جريها على نمط واحد، فأغلب ما تقوم عليه هو حرف المد كما في هذه الآيات:

﴿ قَ وَالْقُرْآنَ إِن الْمَجِيدَ ﴿١﴾ بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكٰفِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ أَمْ ذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴿٣﴾ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كَنْزٌ حَفِيفٌ ﴿٤﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ ﴿٥﴾ أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ﴿٦﴾ ﴾ (ق).

والفاصلة قيمة صوتية ذات وظيفة دلالية، ورعايتها تؤدي إلى تقديم عنصر أو تأخيرها، ليس رعاية للتناسق الصوتي فقط، بل رعاية للمعنى أيضاً، وهذا هو الإعجاز.

مثاله قول الله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ (الفاتحة).

**فإن قلت:** لم قدم العبادة على الاستعانة؟ أجابك اللغويون القدماء أصحاب الحس المرهف، وعلى رأسهم الزمخشري، حيث قال: "هو من تقديم العلة على المعلول". وقال أبو السعود: "هو من تقديم الأشرف".

وقوله تعالى: ﴿وَإِن لَّنَا لَلْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ﴾ (الليل)، لماذا قدم الآخرة على الأولى؟ والجواب: أن ذلك مرتبط بسياق السورة ومقصدها؛ فقد قامت السورة لتأكيد سوء العاقبة والإنذار لمن كذب وأعرض بالتنكيل به في الآخرة، في مقابل الثواب الذي ينتظر من أحسن وتصدق، فإذا ما تحقق مع هذا المعنى الانسجام الصوتي وتناسب الإيقاع في الفواصل، فذلك لا يتم على هذا الوجه من الكمال في غير هذا النظم القرآني المعجز.



ومن قال بالتقديم لرعاية الفاصلة فقط، فهو قصور عن فهم المعنى المراد؛ فالتقديم والتأخير يرتبطان بالسياق والمعنى المراد.

كذلك فإن الترتيب في تقديم الصفات الخاصة بالله تبارك وتعالى، أو الأنبياء - صلوات الله وسلامه عليهم - مرتبط بالسياق، من ذلك قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ﴾ (سبأ).

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ، لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (الحجرات). فقدم الرحمة في آية سبأ؛ لأنها منشأ المغفرة. أما الغفور فتقدم في كل موضع في القرآن فيه ولو إشارة إلى وقوع المعاصي وكفران النعم<sup>(١)</sup>.

وإنَّ ممَّا يلفت الانتباه أن القرآن الكريم قد خلا من التنافر في بنية كلماته، فأصواته كلها قامت على الائتلاف، هذا من جانب، ومن جانب آخر فقد سجلت كلمات القرآن الكريم قمة التناسق بين أصواتها والمعاني المرادة لها، وهذا هو الجديد في الصوت القرآني: أن يُوظف الصوت المفرد داخل الكلمة لخدمة المعنى المقصود، ومن ذلك كلمات: الصَّاحَّة، الطَّامَّة، القارعة، وكلها أسماء ليوم القيامة، وقد جاءت حروف الاستعلاء: الصاد في (الصَّاحَّة)، والطاء في (الطَّامَّة)، والقاف في (القارعة)، وتلا كلا منها حرف المد (الألف) ليعطي أقصى مدًى من التفتيح. وفي هذا إشارة إلى أبلغ القوة والشدة والمفاجأ

www.eajaz.org

(١) معجم الفروق الدلالية في القرآن الكريم لبيان الملامح الفارقة بين الألفاظ متقاربة المعنى والصيغ والأساليب المتشابهة / محمد محمد داود . - القاهرة: دار غريب، ٢٠٠٨ م، ص ٦٢٢.

## المسألة الرابعة: إحياء الصوت بالمعنى

يُقصدُ بإحياء الصوت بالمعنى: أن يُوحِيَ جَرَسُ أصوات الكلمة بمعناها الذي رُصد لها في المعجم، فيلتقي الجرسُ والعرف عندئذ لا على مصادفةٍ ومحض اتفاق، ولكن انتقاء اللفظ يكون عن تعمُد وحسن اختيار<sup>(١)</sup>.

وإن من إعجاز القرآن وتفرده الرائع في الدلالة: ارتباط الصوت بمعانيه ارتباطاً وثيقاً. وقد تأكد لعلماء العربية أن الجانب الصوتي ركنٌ أساسي في بناء التعبير القرآني في مواضع عدة من التنزيل. وقد تبَّه اللغويون القدماء إلى هذه الظاهرة الصوتية، فنقل ابن جني عن الخليل قوله: "كأنهم توهّموا في صوت الجُنْدب استطالةً ومدّاً فقالوا: صرّ، وتوهّموا في صوت البازي تقطيعاً فقالوا: صرّ صر<sup>(٢)</sup>".

وعقد ابن جني لهذه الظاهرة باباً أسماه: "باب في إمساس الألفاظ أشباه المعاني"، ساق فيه ما ذكره الخليل وسيبويه، ثم أورد أمثلة عديدة، نجتزئ منها بقوله:

"فأمّا مقابلة الألفاظ بما يشاكل أصواتها من الأحداث فباب عظيم واسع<sup>(٣)</sup>، ومهجٌ مُتَلَبَّبٌ عند عارفيه مأموم، وذلك أنهم كثيراً ما يجعلون أصوات الحروف على سَمَتِ الأحداث المعبرِّ بها عنها فيعدّلونها بها ويحتذونها عليها. وذلك أكثر مما نُقدِّره وأضعاف ما نستشعره، من ذلك قولهم: خضم، وقضم، فالخضمُّ لأكل الرطب، والقضمُّ للصلبِ اليابس، فاختروا الخاء لرخاوتها للرطب، والقاف لصلابتها لليابس؛ حدّوا المسموع الأصوات على محسوس الأحداث<sup>(٤)</sup>.

لكنّ ما في القرآن الكريم من تجليات هذه الظاهرة الصوتية أوسع بكثير مما ذكره ابن جني، فلقد فجر القرآن طاقات الصوت في العربية إلى أقصى مدى، بحيث إننا نتخيّل - بل نكاد نرى - المشهد المعبرِّ عنه إذا ما لامست أسباعنا كلماته.

(١) البيان في روائع القرآن / تمام حسان، مرجع سابق، ج ١، ص ٢٠٢.

(٢) الخصائص / ابن جني، تحقيق محمد على النجار، ج ٢، ص ١٥٢.

(٣) المرجع السابق، ص ١٥٣.

(٤) المرجع السابق، ص ١٥٧، ١٥٨.

ومن أمثلة ذلك: التكرار لبعض الأصوات بها يوحى بالتتابع، نحو قول الله تعالى: ﴿فَكَبُكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ﴾ (الشعراء)، أي: سقط بعضهم فوق بعض، وتكرار صَوْتِي الكاف والباء (ك. ك. ب) يوحى بهذا السقوط المتكرر.

ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ (الزلزلة) حيث دلّ تكرار صوتي الزاي واللام على قوة الاضطراب والارتجاج.

ومن ذلك: التشديد بعد قلب التاء حرفاً مجانساً لما يليها، نحو قوله تعالى: ﴿فَادْرَأْتُمْ فِيهَا﴾ (البقرة: ٧٢).

الأصل: تدارأتم، فقلبت التاء دالا وأدغمت في الدال التالية فتتج عن ذلك التشديد الذي يدل على حدة التنازع والتشاحن.

ومثله قول الله جل ثناؤه: ﴿حَتَّىٰ إِذَا آدَرَكُوا فِيهَا جَمِيعًا﴾ (الأعراف: ٣٨).

أصل الفعل (تداركوا)، وقلبت التاء دالا وأدغمت في الدال، فلما سُكِّنَتْ جِيءَ بهمزة الوصل، والتشديد يوحى هنا بتداعيتهم في النار متزاحمين بغير نظام، بل إن اشتغال التشديد على سكون فحركة يدل على أن تزامهم في النار جعل بعضهم يعوق بعضاً قبل أن يتردّوا فيها، فكأن النقطة التي تداعوا عندها كانت كعنت زجاجة.

ومن هذا أيضاً "أناقلتم" في قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَالَكُمُ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنَاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ﴾ (التوبة: ٣٨).

وذلك فيما يوحىه التفخيم من الإحساس بالمبالغة في الحدث أو الصفة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِحُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَدَقًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ (فاطر: ٣٧).

فكأن ارتفاع الصوت بالصراخ ومشاركتهم جميعاً فيه، وتكرار ذلك منهم لا يكفي أن يُعبّر عنه بالفعل المجرد (يصرخون)، فجاءت تاء الافتعال لتدل على المبالغة، وقُصِدَ لها أن

تجاوز الصاد المطبقة فتتحول بالمجاورة إلى التفخيم فتصبح طاءً؛ ليكون في تفخيمها فَضْلٌ مبالغةً في الفعل.

وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِحُونَ﴾ أبلغ من (يصرخون)؛ للإشارة إلى أنهم يصرخون صراخاً منكراً خارجاً عن الحدِّ المعتاد.<sup>(١)</sup>

ومن ذلك ما حكاه السيوطي في "الإتقان" عن الفرق بين قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ﴾ (البقرة: ١٧٩)، وبين قول العرب "القتل أنفى للقتل"، حيث ذكر عشرين وجهاً للفرق بينهما، ومن ذلك:

أن في المثل توالي أسباب كثيرة خفيفة، وهو السكون بعد الحركة، وذلك مُسْتَكْرَه.

سلامة الآية من تكرير قلقلة القاف الموجب للضغط والشدة وبعدها غنة النون.

اشتغال الآية على حروف متلائمة، لما فيها من الخروج من القاف إلى الصاد؛ إذ القاف من حروف الاستعلاء والإطباق، بخلاف الخروج من القاف إلى التاء التي هي حرف منخفض، فهو غير ملائم للقاف، وكذا الخروج من الصاد إلى الخاء أحسن من الخروج من اللام إلى الهمزة؛ لبعد ما بين طرف اللسان وأقصى الحنك.

سلامتها من لفظ (القتل) المشعر بالوحشية، بخلاف لفظ (الحياة)، فإن الطباع أميل له من لفظ (القتل)<sup>(٢)</sup>

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى﴾ (النجم).

و(ضيزى) تعني: جائرة ظالمة، لكن لفظ (ضيزى) جاء هنا ليحقق غرضين هما: رعاية الفاصلة التي غلبت فيها الألف المقصورة، والثاني: الإيحاء - بما في الضاد من تفخيم - إلى أن الجور في هذه القسمة لا مزيد عليه.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ كَصَيْبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمٌ وَّرَعْدٌ وَرَقٌّ﴾ (البقرة: ١٩).

(١) الإتقان/ السيوطي، تحقيق: د. محمد متولي منصور، ج ٣، ص ٢٧٣.

(٢) المرجع السابق، ص ١٧١: ١٧٤ بتصرف.

والصَّيْب: النزول الذي له وقع وتأثير، ويُطلق على المطر والسحاب، وتنكيره لِمَا أنه أُريدَ به نوعٌ شديدٌ هائل، كما أن الصاد المستعلية (المفخمة) والياء المشددة والباء الشديدة - تدل على القوة والتدفق وشدة الانسكاب.

وكان الفارابي (ت ٣٣٩ هـ) قد التفت إلى ما سماه بعض المحدثين "الحاسّة الموسيقية"، وسماه هو "الهيئة الشعرية"، وكونها مركوزة في الإنسان منذ تكوينه، أو على حدّ قوله: "مركوزة فيه من أول كونه"<sup>(١)</sup>.

وهي في اللغة العربية وفي إحساس العربي أكثر ظهوراً، حتى إن كثيراً من الباحثين يصف لغتنا بأنها لغة موسيقية، وأنها انحدرت إلينا وقد اكتسبت هذه الصفة منذ أقدم نصوصها<sup>(٢)</sup> وتلك الخصيصة أكسبت سمع العربي قدرة عالية في التمييز بين الفروق الصوتية الدقيقة، فكان حُسُّه مرهفًا يستريح لجنسٍ من الكلام لحسن وقعه، وينفر من آخر لُبُو جرسه<sup>(٣)</sup>. ولقد بلغ القرآن الكريم الذروة في التأثير في سمع العربي ووجدانه، وذلك بعدوبة جرسه وجمال إيقاعه ونغمه، وما لذلك من صلة بدلالته.

إن الإيحاء الصوتي في القرآن ينهض به الصوت اللغوي وحده، مفردًا كان أو مركّبًا، فيصوّر المعنى - الذي في السياق - بدقّة، بحيث لا يسدُّ آخرُ مسدّه.

فمن الأصوات المفردة (الصوائت) Vowels: ألف المدّ وياء المدّ؛ إذ لهما إيجاءان صوتيان متغايران يستشعرهما السامع النابه المتأمل، أحدهما (صاعد) بألف المدّ، والآخر (هابط) بياء المدّ، وكلاهما وردا في سياق واحد، هو قوله تعالى: ﴿وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لِّمَا طَلَعَ نَضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِزْقًا لِلْعِبَادِ ﴿ق﴾.

فعند الوقوف في التلاوة على لفظة (بَاسِقَاتٍ) تُمدُّ الألفُ فيها ستَّ حركات، وهو المدُّ العارض للسكون<sup>(٤)</sup>؛ لِتُصَوِّرَ هذا الامتداد إلى علوٍّ في بسوق النخلة وارتفاعها في الجوِّ بتلك

(١) كتاب الموسيقى الكبير / الفارابي . - القاهرة : دار الكتاب للطباعة والنشر، [د.ت. ]، ص ٧٠.

(٢) دلالة الألفاظ / إبراهيم أنيس . - القاهرة : مطبعة لجنة البيان العربي، ١٩٦٣ م، ص ١٩٥.

(٣) المرجع السابق.

(٤) الرسالة الشافية ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن / الجرجاني . - القاهرة، ١٩٦٨ م، ص ١٢٥. دلائل

الرشاقة الجميلة، التي تنتهي في أعلاها بذلك السعف الجميل المتهدّل على جوانب قمّتها من كل جهة، حتى إنها لتبدو كالفاتاة الفرعاء<sup>(١)</sup>.

فإذا تلا القارئ بعد ذلك لفظة (نضيد)، ووقف على الدال، استشعر السامع بهذا المدّ الهابط (الياء) خلاف ما استشعره بذلك المدّ الصاعد، الذي قَبَلَهُ في (بَاسِقَاتٍ)؛ إذ يستشعر بسمعه قبل بصره هذا التنضيد الذي في الطَّلْع، وقد غُطِّي بغطائه الربّاني الجميل ذي الرائحة الذكية العبقة، ومن إيجاء الأصوات المفردة في تعبير القرآن: إيجاء (الهمزة)، وإيجاء (الهاء) في سياقيهما؛ إذ ورد كل منهما في سياق مغاير - دلاليًا - لسياق الآخر، وهذا يعود إلى تغاير صفة كل منهما من الناحية الصوتية، وإن كانا من مخرج واحد هو الحنجرة؛ إذ الهمزة صوت شديد انفجاري، بل هو أشدّ الأصوات اللغوية في العربية، على حين عدّت الهاء من الأصوات الرخوة والمهموسة الضعيفة، بل هي أضعف أصوات العربية.

فإذا تدبّرنا الكتاب المعجز المين - القرآن الكريم - وجدنا الهمزة فيه قد وردت في سياق يوحي بالشدّة، متمثلاً بهذا التركيب الفعلي المؤكّد بالمصدر في قوله تعالى: ﴿الْمُرْتَأَاتُ أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَوَزُّهُمُ أَرْأً﴾ (مريم: ٨٣).

ووجدنا (الهاء) قد وردت في سياق مغاير له، بل هو مضادّ له دلاليًا من حيث الإيجاء؛ إذ وردت في تصوير ما أمرت به مريم ابنة عمران - عليها السلام - (وهزي إليك). حين أتاها الطَّلُق، فضاقت بذلك ذرعاً؛ إذ كيف يُولَدُ لها ولُدُّ وهي لم تتزوج بَعْدُ؟ فكان النداء الذي سمعته مُطْمَئِنًّا لها من ناحية، وأمرًا إياها بهزّ جذع النخلة التي أوت إليها تستظلُّ وتستترُّ بها بعد أن أمرها ألا تحزن من ناحية أخرى. وذلك بقوله تعالى: ﴿فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي

قَدْ جَعَلَ رَبُّكَ تَحَنُّكَ سِرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهَزَيْتِ إِلَيْكَ جِذْعَ النَّخْلَةِ فَسَقَطَ عَلَيْكَ رُطْبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾

فقال تعالى: (هُزِّي) هنا، ولم يقل: (أزِّي)، كما قال في آية إرسال الشياطين على الكافرين: (تَوَزُّهُمُ)، ولم يقل: (تهزُّهمُ)، وذلك للفارق الدلالي بين السياقين: سياق الشدة والعنف،

الإعجاز / الجرجاني؛ تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي . - القاهرة: مكتبة القاهرة، ١٩٨٠ م .

(١) القاموس المحيط / الفيروز آبادي . - ط ١ . - بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٨٦ م، مادة: فرع.

وسياق اللين والحنان، في تَوَازٍ مع الفارق الصوتي بين الهمزة الشديدة المجهورة والهاء المهموسة. وهذا من رائع بيان القرآن ودلائل إعجازه.

وإذا كان إيجاء (الألف) في فواصل آيات مريم جميلاً باعثاً على التأمل المُفْضِي إلى شكر النعمة، فإنَّ للألف في غير هذا السياق إيجاءً آخر؛ نحو قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَتَمَطَّى﴾ (القيامة: ٣٣)

إذ نجدها في هذا الموضع تُشعر بالكِبَر والاستعلاء، في تصوير مَشِيَّة كافرٍ من قريش، عَرَّتْهُ مظاهر الدنيا الفانية من مال وجاه وولد؛ فأيقاع الآية مشعر بمشيئة الكِبَر لدى هذا المشرك المتعالي، وَلَكِنْ يَهْمُنَا كَثِيرًا هنا هذه اللفظة التي وقعت فاصلة، وهي: (يتمطَّى)؛ إذ وردت لأمها ألفاً، وهي الطاء الثانية في أصل الكلمة؛ وأصلها: (يتمطط)، ولكنَّ التعبير القرآني عدل عن الطاء التي في آخر اللفظة إلى الألف بدلاً منها، لا لمجرد اتساق حروف الرويِّ - كما في الشعر - فيها مع سائر الفواصل التي تلتها، مثل (أُولَى) و(سُدَى) و(يُمْنَى) و(فَسَوَى) (١).

إنَّ هذا ملحظ شكليّ ليس هو المراد هنا، وإنَّ كان له قيمته الصوتية الإيقاعية المؤثرة في نفس المتلقِّي، وإنما ورد لفظ (يتمطَّى) معدولاً عن أصله الطائي (يتمطط) إلى الألف الواقعة حرف رَوِيٍّ للفاصلة؛ إيجاءً بتبخر صاحب هذه المشية، وإشعاراً بما في نفسه من الزهو والخيلاء الفارغين من بواعث الحق والخير؛ إذ معنى (يتمطَّى) في اللغة: يتبختر، وأصله: يتمطط، أي يتمدد؛ لأنَّ المتبختر يمدُّ خطاه. وقيل: هو من المطا، وهو الظَّهر؛ لأنه يلويه عند سيره (٢).

ويَهْمُنَا هنا كيف رَسَمَ المدُّ الصوتي بالألف هذه المشية المكروهة المنهي عنها، فإذا قرأنا (يتمطَّى) بأداء صوتي دقيق في التجويد، فأعطينا الطاء الشديدة المطبقة المكررة بالتشديد حقها من الأداء الصوتي، وأتبعناها مدَّة الألف واقفين عليها، حاكت الصورة الصوتية بذلك تلك المشية الممقوتة، مشية التلوِّي صعوداً إلى الأعلى ونزولاً. وذلك من التصوير

(١) تحفة الإخوان في بيان تجويد القرآن / حسن إبراهيم الشاعر، ص ١٣.

(٢) تُنظَرُ فواصل الآيات: ٣٥، ٣٦، ٣٧، ٣٨ من سورة القيامة.



الفني في القرآن عن طريق الإيحاء الصوتي، مضافاً إلى الدلالة اللغوية الأصلية للفظة، التي تعرفها العرب في تحاورها.

ومن الإيحاء الصوتي الإفرادي: المدّ بالألف المُوحي بالندم والتوجّع النفسي، في مثل قول الكافر: ﴿بِحَسْرَتِي عَلَىٰ مَا فَرَطْتُ فِي جَنبِ اللَّهِ﴾ (الزمر: ٥٦) في يوم القيامة، وقد وقف بين يدي ربه للحساب، وهذا مشعر صوتياً بتوجّعه وندمه بهذين المديّن اللذين اكتنفا التعبير، وهما مدُّ (يا) ومدُّ (تا)، مضاعفاً إحساس المتلقّي بندم الملقّي المير، فضلاً عما في نداء الحسرة بحرف النداء (يا) من تشخيص استعاري للحسرة، حين جعلها تُنادَى كما يُنادَى العاقل، وهذا من بليغ بيان التنزيل.

ومن الإيحاء الصوتي بالشعور بالندم: ما تحدّثه (هاء السكت) في قول من قرّط فيما ينبغي عليه أداؤه إزاء ربّه وأهله، قال تعالى: ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِي﴾ (الحاقة). فهذه الهاء إذا وقّفت عليها القارئ أشبهت الحسرة في انطلاقها من صدر المتحسّر لندمه.

وقد يكون الإيحاء الصوتي في تعبير القرآن مقطعيّاً وليس إفرادياً، كالذي في لفظة (دَمْدَم) في قوله تعالى: ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمُ رَبُّهُمْ﴾ (الشمس: ١٤)، حين عقروا ناقة الله التي أمرُوا بألا يمسّوها بسوء فغضب الله تعالى عليهم، فدمّر قريتهم، فجاء التعبير بهذا اللفظ: (دَمْدَم)، بدلالة مزدوجة، إحداهما (لغوية)، وهي الأصلية، أو كما يسمّيها المعاصرون: (مركزية) أو (أساس)، والدلالة الأخرى (إيحائية)، وهي لون من الدلالة الثانوية، أحدثها إيقاع اللفظة.

وأما وصف هذه اللفظة (دَمْدَم) بأنها مقطعية، فلائها ذات مقطعين متماثلين هما: (دَم/دَم)، فلما التأمّا في اللفظة مكرّرين، أشعر جرسهما المدوّي بما يشبه القصف: (دَمْدَم). وهذه الدلالة الإضافية صعدت استشعار الشدّة والغضب في تصوير هذه العقوبة الإلهية العادلة، بمن لم يرعَ لله حرّمته، ومن التناسب بين إيحاء الصوت والدلالة المقصودة للكلمة قوله تعالى: ﴿عَيْنَاهَا تَسْمَىٰ سَلْسِيلًا﴾ (الإنسان: ١٨)، إذ توحى لفظة السلسيل بالسلاسة ويسر الاستساغة، وذلك لما بين اللفظين (سلسيل / سلاسة) من شَرِكَةٍ في بعض الحروف.

هذا في مقابل الإيحاء في جهة الضد للمعنى السابق، كما في قوله تعالى: ﴿إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا﴾ (النبأ: ٢٥)؛ إذ إن مادة (غسق) في القرآن منها: الغسق، والغاسق، والغساق،



وتوحي بأن القسط المشترك بين هذه المشتقات هو: الدلالة على أمور كريمة؛ فالغسق: الظلمة، والغاسق: الليل الشديد الظلمة، والغساق: شيء كريمة لا يُشرب، وفَسْرُوه بالصيد، وتُسْتَفَادُ هذه الدلالة لغويًا من إيجاء الغين والقاف هنا<sup>(١)</sup>.

ومثله قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَارِ لَفِي سِجِّينٍ﴾ (المطففين: ٧)، وقوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيحٍ﴾ (الغاشية: ٦)

والضريح نبات شوكي، وإيجاء لفظ (ضريح) في الطعام يفيد ذلا يؤدي إلى تضرع كل منهم وسؤال الله العفو عن ذلك، كما أن الضاد المضممة توحي بما فيه من كزازة، كذلك فإن العين الحلقيّة كأنها توحي بإظهار الكزازة وتأثيرها في الحلق<sup>(٢)</sup>.

يقابله في المعنى على الجهة الأخرى قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ﴾. وكذا قوله تعالى: ﴿قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ ائْتِنِي حَصْحَصَ الْحَقِّ﴾. ومن هذا القبيل قول الله تعالى: ﴿فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَوقِ فَصَكَتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾

حيث عبّر عن هذا الحدث بلفظ مغاير للفظ (الضرب)، الذي استعمله القرآن في موضع أُريد به تأديب الزوجة إذا نشزت على زوجها بضرب غير مُبرِّح، بعد مرحلتي الوعظ والهجر، واستعمل هنا الفعل (صَكَتْ)، وهو اللفظ الذي انفرد به هذا الموضع.

فإذا حللنا الفعل (صَكَتْ) تحليلاً صوتياً مع ما لحقه من تاء دالة على التأنيث، وجدناه يجمع بين الشدة والتفخيم؛ إذ الصاد من أصوات الإطباق، والمطبق مفخّم، والكاف والتاء صوتان شديدان، وزاد من شدة الكاف تضعيفها. وبهذا أدت هذه اللفظة بهذه الأصوات صورة اللطمة الشديدة من جانبها الصوتي الإيجائي، فضلاً عن جانبها اللغوي الدال على الضرب الشديد؛ وبذلك ضاعف الإيجاء الصوتي للصك من دلالاته على الضرب الشديد

(١) البيان في روائع القرآن / تمام حسان، مرجع سابق، ج ١، ص ٢٠٨: ٢١٠.

(٢) المفارقة القرآنية: دراسة في بنية الدلالة / محمد العبد. — ط ١. — القاهرة: مكتبة الآداب، ٢٠٠٦م، ص ٩٠.

## المسألة الخامسة: الإيحاء الصوتي للتراكيب

وقد ينهض التركيب الصوتي بإيحاءٍ معينٍ منبعث من خصائصه في صورته المركبة، من ذلك قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا نَعَّمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاٍ عَرِيضٍ﴾ (٥١) (فصلت)

وُصف الدعاء في هذه الآية بأنه (عريض)، ولعل إثارة العرض على الطول هو الأقوى دلالةً على أنه دعاء الاستصراخ والاستغاثة الملهوفة... وذكر العرض يومئذ إلى سعة الدعاء التي تُومئ إلى حركة جاهدة من أعضاء النطق، وهذه الحركة تُومئ بدورها إلى أن ذلك الإنسان قد امتلأت جوانبه بذلك الدعاء. وقد أُورثت كلمة "دعاء" على مرادفها "نداء"؛ لأن الدعاء - رفع الصوت وخفضه - أدلُّ على حال اللهفة والمداومة على الطلب وفقدان السكينة، وهي دلالات يفتقدها النداء المجرد.

ونلاحظ هنا أن البنية الصوتية للموصوف "دعاء" تأتلف مع صفته "عريض"؛ وذلك أن الألف في "دعاء"، سوف يصل صوتها، وتتمكن مدتها؛ لوقوع الهمزة بعدها. وإنما تمكن المد في الألف مع الهمز، لأن الهمزة - كما يقول ابن جني - حرف نأى منشؤه، وتراخى مخرجه، فإذا نطقنا بالألف (ويجري ذلك على الواو والياء) قبل الهمزة، ثم تمادينا بالألف نحوها طالت الألف وشاعت في الصوت، فوفت لها، وزادت في بيانها ومكانها، وليس كذلك إذا وقع بعد الألف - وحروف المد الأخرى - غير الهمزة وغير المشدد. ولذلك كان ابن جني يصف حروف المد إذا تلاهن الهمز والحرف المشدد، بأنهن ليئات، ناعمات، وافيات، مستطيلات<sup>(١)</sup>. وإذا كان الأمر كذلك، رسخت الألف في المد وتمادى الصوت بها في الموصوف، وكأن الموصوف بما فيه من وفاء الصوت وتمكن المد يحكي معنى الصفة ويطباقها!

العرض - إذن - يومئ إلى الطول، ولا عكس. والعرض فيه التجسيم لصورة الدعاء المتسع. والعرض أقوى تعبيراً عن الامتلاء بالدعاء. ومن ثم لا يكفيننا أن نتوقف عند تحديد دلالة "عريض" في الآية الكريمة بأنها الكثير كما فعل الشوكاني. إن كلمة (كثير) التي

(١) الخصائص / ابن جني، مرجع سابق، ج ٢، ص ١٢٥.

ذكرها الشوكاني تظل قاصرة عن حمل الدلالات والإيحاءات والمعاني الأسلوبية الخصبية التي تحملها كلمة "عريض" قصوراً ملحوظاً للغاية. لقد حاول الشوكاني تفسير قوله تعالى: ﴿فَذُودُ عَكَاءٍ عَرِيضٍ﴾ في ضوء تخريج المعنى في لغة العرب؛ قال: "والعرب تستعمل الطول والعرض في الكثرة مجازاً. يقال: أطال فلان في الكلام، وأعرض في الدعاء، إذا أكثر. والمعنى: إنه إذا مسه الشر، تضرع إلى الله واستغاث به، أن يكشف عنه ما نزل به واستكثر من ذلك" (١). هذا إلى جانب التآزر الخلاق بين الصورة التي ترسمها المفارقة والصوت، في تلك الآية. ونعني بذلك علاقة تكرار صوت العين تكراراً ملحوظاً (خمس مرات) بصورة المعرض إذا دعا دعاءً عريضاً. فالعين - مخرجاً - صوت حلقي منخفض خلفي، والعين - صفةً - صوت جهوري استمراري خشن.

ولعل تمتع العين بهذه الصفات - من قوة إسماع، واستمرارية، وخشونة.. الخ - مما يجعلها أكثر الفونيمات موامة لهذا الدعاء الصادر في تلك الحال بخاصة؛ حال الشدة والضر!

ولعلنا ندرك في السياق الصوتي للآية كلها ملمحاً صوتياً آخر؛ هو تردد الأصوات الأنفية، والأصوات الأنفية أصوات رنانة، والأصوات الرنانة هي التي تنتج بشكل التجويف للوترين الصوتيين الذي يجعل الجهر التلقائي ممكناً. ولعل مثل هذه الأصوات الرنانة ذات اتصال بالإيحاء بجو هذا الدعاء، بما قد يداخله عند مس الضر من أين وندم.

ونلاحظ في السياق الصوتي الوظيفي للآية ذاتها وظيفة أخرى تشغلها حروف المد، لا سيما الطويلة، التي تكررت في مجموعها تسع مرات، وتلتقي حروف المد صوتياً - من حيث طول مدة الاستغراق الزمني للنطق بها - بهذا الضرب من الدعاء العريض؛ حيثما يستلزم العرض هنا الطول! وفي الخطاب القرآني مواضع أخرى وردت فيها مفردات عينية، تصور حالات فزع وهلع. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ (١٩) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جُرُوعًا (٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا (٢١) إِلَّا الْمُصَلِّينَ (المعارج).

وإذا كانت العين في هذه الآيات ترتبط قيمتها التعبيرية بمقامات مجردة يغلب فيها

(١) فتح القدير / الشوكاني دمشق: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، [د.ت.]. ج ٤، ص ٥٢٢، ٥٢٣.

الاضطراب والشدة، فإننا نلاحظ هذه القيمة ذاتها في مقامات محسوسة أيضًا. ومن ذلك لفظ "الدَّع" في قوله تعالى عن المكذبين: ﴿يَوْمَ يَدْعُوتُ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾

**والدع:** دفع في الظهر بعنف. ولعله وقع هنا؛ لأنه أقدر من غيره على الإيحاء بما يخرج من المدفوع من صوت غير إرادي، فيه عين ساكنة هكذا: أع، وهو في جرسه - كما يقول سيد قطب - أقرب ما يكون إلى جرس الدع<sup>(١)</sup>.

ومن ذلك أيضًا لفظ "البلع" و"الإقلاع" في قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَسْمَأْ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَىٰ الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾  
بيد أننا إذا عدنا إلى آية (فصلت) السابقة، لاحظنا تردد حركة الفتحة بخاصة ترددًا ملحوظًا (بلغ اثنين وعشرين مرة، منها ثمانٍ للفتحة الطويلة، وأربع عشرة للفتحة القصيرة).

ولعل من الطريف هنا أن نشير إلى أن صفة الاتساع التي تتصف بها الفتحة تتصف بها أصوات الحلق أيضًا، ويرجع ذلك إلى أن "كل أصوات الحلق بعد صدورها من مخرجها الحلقي تحتاج إلى اتساع في مجراها بالفم، فليس هناك ما يعوق هذا المجرى في زوايا الفم، ولهذا ناسبها من أصوات اللين أكثرها اتساعًا، وتلك هي الفتحة<sup>(٢)</sup>.

وإذا كانت الفتحة تتصف بالاتساع، فإن المدى الزمني لهذا الاتساع مع الألف التي تكررت سبع مرات سوف يصير أطول. إن الألف - بما فيها من مد الصوت والإبعاد فيه - قد ارتبطت بهذا الدعاء العريض ارتباطًا وثيقًا، ولعل الألف أشد الحركات الطويلة ارتباطًا وحكاية لطبيعة مثل هذا الدعاء، إنها - فيما يبدو - أحق من أختيها: الواو والياء؛ لأن الألف - كما يقول ابن جني - أمدهن صوتًا وأدهن، وأشدهن إبعادًا وأناهن<sup>(٣)</sup>.

لقد هيأت هذه المادة الصوتية واللفظية لكلمة "دعاء" رسم صورة ساخرة لإنسان لاه، مُعْرَض، ناءٍ بجانبه، مطمئن إلى نعيم وافاه، قد شغله وأنساه، كما مكنتها من رسم صورة أخرى لإنسان هلعٍ فرعٍ، قد انقلب حاله، فانخرط في دعاء عريض<sup>(٤)</sup>

(١) التصوير الفني في القرآن / سيد قطب، مرجع سابق، ص ٨١.

(٢) (٢) في اللهجات العربية / إبراهيم أنيس . ط ٤ . - القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، ط ٤، ١٩٧٣م، ص ١٧٠.

(٣) الخصائص / ابن جني، مرجع سابق، ج ٣، ص ١٥٥.

(٤) المفارقة القرآنية: دراسة في بنية الدلالة / [www.eajaz.org](http://www.eajaz.org) ص ١٥٦ : ١٦٢.

## المسألة السادسة: التناسب والتناسق بين نوع الحركة والمعنى

التناسب والتناسق بين الحركة (فتحة وكسرة وضممة) ومعنى الكلمة في سياقها أمر يثير الانتباه أمام هذه العظمة في لغة القرآن الكريم.

ومن ذلك قول الله تعالى: ﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (فاطر).

بتأمل حركة الكاف في كلمة (ممسك) في الآية نجد أن السكون في الثانية موافق لمعنى الإمساك؛ لما بها من إغلاق وعدم حركة، في حين أن الأولى مفتوحة وهي مناسبة لمعنى قول الله تعالى ﴿يَفْتَحُ﴾.

ويمكن ملاحظة هذه الظاهرة في آيات أخرى نحو قول الله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الفاتحة).

لو كانت الجملة من مقول القول لكان مقتضاها: الحمد بفتح الدال على تقدير: أقول الحمد لله، فلماذا عدل عن النصب إلى الرفع (الحمد) على تقدير: قولي: الحمد لله؟!

**الجواب:** عدل عن النصب إلى الرفع للدلالة على أن الحمد ثابت لله تعالى أزلاً، وإن لم يحمده أحد؛ فقد حمد نفسه بنفسه قبل أن يحمده الخلق، وعليه فالجملة خبرية لا إنشائية لفظاً ومعنى. وهو أولى الأقوال في هذه الجملة.

## المسألة السابعة: عولمة الصوت وعالمية النغم القرآني الخالد

### مفهوم العالمية:

يُقصدُ بالعالمية: سعة الانتشار عبر الزمان والمكان، والعالمية سمة مميزة للفنون الرفيعة، فقد أجمع النقاد ومؤرّخو الفنّ على أن الفن الرفيع ينبغي أن تتوفر فيه صفتان هما: العالمية والدوام، ويُرمز إليهما بالحرفين الأوّلين من هاتين الكلمتين: Universal أي عالمي، Permanent أي دائم، فيقال: إن الفن الرفيع (U.P)، حيث تشير صفة العالمية Universal إلى الانتشار عبر المكان، فالفن العظيم لا وطن له، وتشير صفة الدوام إلى بقاء الفن الرفيع على مدى العصور.

### مفهوم العولمة:

أمّا العولمة "Globalism" فتعني: تنميط الثقافات المتنوعة وقصرها على التشكّل في قوالب يُقال إنها عالمية، والحقيقة أنها القوالب والأنماط الثقافية الغربية والأمريكية خاصة، بحيث تمثل الثقافة الأمريكية المحور والتيار الرئيس الذي تدور من حوله ثقافات كل الشعوب وتحتذيه مثالا أعلى في العلم والإبداع وغير ذلك من أشكال الممارسة الإنسانية.

وهنا يكمن الفرق بين العالمية والعولمة، فالعالمية تُستمدُّ من القيم التي يحملها الإبداع، بما يهيئ له أن يتخطى حواجز الزمان والمكان، ويُصغي إليه البشر في كافة العصور والبقاع.. بينما تُفرض العولمة قسراً؛ خضوعاً للثقافة المهيمنة بما رجّحت له من نظريات المركز والأطراف، المحور والهامش.

## عولمة الصوت:

سعى دعاة العولمة إلى تحويل الصوت إلى سلعة يتم تداولها عبر وسائط العولمة الاقتصادية والتكنولوجية كشرائط الكاسيت والفيديو والإذاعة والتلفزيون وبرامج الكمبيوتر وشبكات، بحيث لم تعد فنون الصوت - كالموسيقى والغناء - فنوناً تؤثر في العاطفة الإنسانية المشتركة وتلمس الروح الإنسانية بما تحمله من قيم جمالية ووجدانية، بل مجرد سلعة تُقدّم لمن يدفع الثمن. وراحت عمليات العولمة تنتج فنوناً موسيقية وغنائية ليس فيها شيءٌ من الجمال أو الإبداع، وإنهاهي ضجيج صاحب يصدع الرؤوس، وإيقاعات فجة تتمايل معها الأجساد حتى تسقط منهكة القوى سقيمة المشاعر، فكانت تلك الأساليب الموسيقية الغربية، والغناء المُخنث على طريقة مايكل جاكسون وغيره من نجوم هذا اللون من الغناء والموسيقى.

كما قامت عمليات عولمة الصوت باجتذاب بعض الموسيقيين والمغنيين من بلاد العالم الثالث، وراحت تروّج لهم بكل أشكال الدعاية، وتروّج لموسيقاهم بزعم البحث عن الأصالة والعنصر الروحي في الموسيقى والغناء، على نحو ما فعلوا مع المُشدّ الصوفي الباكستاني "نصرت فتح على خان"، الذي اشتهر عالمياً بـ "فن القوالي"، أي: الموسيقى والإنشاد الصوفي، والمغني والموسيقي السنغالي "يوسو ندور"، الذي لم يمثل لشروط شركات الإنتاج الموسيقي التي كانت ترغب في تحويل أصالته الفنية إلى مجرد حلية شكلية تذوب في تيار الموسيقى الغربية؛ ولذلك أسقط اسمه من تلك الألبومات الموسيقية التي وصفها النقاد بأنها مُعمّنة في الطابع الغربي أكثر من اللازم.

في هذا الاتجاه نحو عولمة الصوت أدعت شركات الإنتاج أنها تبحث عن الأصالة والتنوع الموسيقي، واخترعت مصطلح "الموسيقى العالمية" وأطلقتها على ألوان الموسيقى التي لا يعرفها الجمهور الغربي مثل: التانجو (من الأرجنتين وأرجواي)، والروك والبوب (من البرازيل)، والنورتينو (موسيقى الشمال من المكسيك)، إلى الموسيقى الشعبية الأندلسية ذات الأصول العربية المُسمّاة "موسيقى لوس ديل ريو"، وهي جملة إسبانية تعني: أولئك الذين من النهر، إشارة إلى نهر جود الكوفير - مأخوذ من العربية: الوادي الكبير - وقد اشتهر فنّانو هذه الموسيقى الشعبية الأندلسية باسم "ملوك الماكاريننا" نسبة إلى أشهر أغنياهم



المسماة "ماكارينا" التي كانت ماثراً لجنون الشباب في الغرب وكثير من بلاد العالم الأخرى؛ نتيجة للدعاية الضخمة التي قام بها مُنتجو الكاسيت، بهدف جني أرباح وفيرة<sup>(١)</sup>.

إذن لم تعد الموسيقى - في إطار العولمة - تحتفي بالقيم الفنية والجمالية، وإنها هي تُسوّق كل ألوان فنون الصوت، وتخلط الغث بالسمين، وتضع أسطوانات بيتهوفن وباخ وموزار إلى جانب أسطوانات مايكل جاكسون وموسيقى الراي الجزائرية..... إلخ.

### إن الهدف الواضح في عمليات عولمة الصوت أمران:

**الأول:** جني الأرباح.

**الثاني:** تنميط الأشكال الموسيقية والغنائية في العالم كله وإخضاعها للقوالب الموسيقية الغربية؛ لإرضاء ذوق الجمهور الغربي، وإبقاء سيادة الأشكال الموسيقية الغربية دون غيرها من ألوان الموسيقى وفنون الصوت في البقاع الأخرى من العالم.

وإذا أردنا أن نفهم العلاقة بين الموسيقى العالمية (المزعومة) وبين العولمة، فلن يتأتى لنا ذلك إلا بالبحث عن الأهداف الاقتصادية والثقافية والاجتماعية الكامنة وراء ذلك الإنتاج الضخم لفنون الصوت المعولمة.

فأمّا من الناحية الاقتصادية: فنجد أن ٩٠٪ من إجمالي المبيعات من ألبومات الأغاني والموسيقى في العالم كله (خلال عام ١٩٩٤) تملكه ست مؤسسات تجارية دولية هي: فيليبس، وسوني، وماتسوشيتا، وثورن إي. إم. آي، وبيرتلزمان، وتايم وورنر؛ ولذا تميّزت صناعة الموسيقى العالمية بالهيمنة الاقتصادية لمؤسسات تجارية من أمريكا وأوروبا وشرق آسيا، وهي مراكز صناعة العولمة.

وأما من الناحية الثقافية: فإن الثقافة المهيمنة - أو التي يُراد لها الهيمنة - هي الثقافة الغربية، وخاصة الأمريكية وما يدور في فلك التبعية لهذه الثقافة؛ ولذلك لا تؤخذ فنون الصوت غير الغربية مأخذ الجد بوصفها فنوناً رفيعة وأدواتٍ للتعبير عن أنماط ثقافية مختلفة، بل

(١)(١) سوسيولوجيا الفن / ديفيد إنجليز، جون هجسون؛ ترجمة ليلي الموسوي؛ مراجعة محمد الجوهرى . - الكويت: المجلس الوطني للثقافة والعلوم؛ ٢٠٠٧ م. — (عالم المعرفة؛ ٣٤١)، ص ٣٤١.



تُدَجَّن وتُتخذ كحليّ شكلية تزدان بها الموسيقى الغربية؛ إرضاءً لنزعة الجمهور الغربي إلى الغرائبية والروحانية، واجتذاباً للجاليات الأجنبية في بلاد الغرب.

وأما من الناحية الاجتماعية: فهناك حالة من النفاق الاجتماعي في الغرب، إذ يجتذب الألوان الموسيقية والغنائية من مختلف الثقافات، والغرب نفسه هو الذي يقمع تلك الشعوب ويمارس عليها كافة صور الهيمنة والتجويج والحرمان، بل وصياغة مصائر تلك الشعوب.

ولعولمة الصوت كهنتها من الكتاب والصحفيين ومُقدّمي البرامج الإذاعية والتلفزيونية وأصحاب شركات الإنتاج، ومُخطّطي البرامج الثقافية، كل هذا يتآزر معاً لتكوين ثقافة صوتية عالمية، يتم إنتاجها في المركز "الغرب"، وتصديرها إلى الأطراف "سائر بلاد العالم".

وعلى الرغم من كل هذه السلبيات الناتجة عن عمليات العولمة لفنون الصوت، فإن لها بعض الإيجابيات المتمثلة في تعريف الغرب ببعض من أشكال الفنون الصوتية في الثقافات الأخرى المهمّشة، وأيضاً إلقاء بعض الضوء على تلك الثقافات وما لها من خصوصية في مجال الإبداع الصوتي.

ولكن ما يُضعف هذه الإيجابيات ويعظم من سلبيات عولمة الصوت - أنها تقوم على الأهداف الاقتصادية، وبالتالي استبعاد العناصر الجمالية والفنية، والأهداف الثقافية والاجتماعية التي كرّست جهودها في تنميط الثقافات الأخرى، والقضاء على الخصوصية الثقافية والهوية القومية والشخصية الاجتماعية للشعوب الأخرى لحساب حضارة الغرب وهيمنته بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية.

## عالمية الصوت:

الإبداع العظيم يفرض نفسه في كل زمان ومكان، تلك حقيقة العالمية عبر تاريخ الإنسان. وعلى الرغم من كل ممارسات الهيمنة التي قامت بها قُوَى العولمة، فإنها لم تستطع إخضاع الإبداع الصوتي للحضارات الأخرى، وسنضرب لذلك مثلاً بخلود الصوت القرآني وعظمة أدائه وعمق تأثيره في القلوب والمشاعر.

يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم في وصف قراءة الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: "مَنْ أَحَبَّ أَنْ يقرأ القرآن غَضًّا طَرِيًّا كما أنزل على فليقرأه على قراءة ابن أم عبد" (١)

ولا تزال هاتان الصفتان: الغضاضة والطراوة، التي تعني عدوبة أنغامه، وأخذها بمجامع القلوب، ودوام هذه العدوبة وذلك التأثير.. لا تزال هذه الصفة الخالدة للأداء القرآني العظيم باقية وستظل باقية إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، فها نحن أولاء نستمتع إلى كلمات القرآن ونغماته فنهتز وتتفصص قلوبنا من الأعماق، ونسبح في فضاء روحاني نوارني ونحن نصغي لتلاوة المشايخ: محمد رفعت أو محمود خليل الحصري أو محمد صديق المنشاوي أو مصطفى إسماعيل... وغيرهم ممن وهبهم الله عدوبة الصوت، وكان لهم تمكن من فن التجويد والأداء القرآني.

وقد ظهر فيما تقدم من مسائل تفرّد الخصائص الصوتية للقرآن الكريم، وهذا قليل من كثير عن القيم الصوتية والإبداع الصوتي للقرآن الكريم وطرائق أدائه، التي تعبر عن التميّز والخصوصية والإعجاز الصوتي للقرآن الكريم، وخلود الصوت القرآني في آفاق الزمان والمكان.

ولعلّ ما قدّمناه مقننًا للفارق الهائل بين عوامة الصوت المفروضة بقوى خارجية لا تحكمها قيم جمالية وإبداعية، وبين عالمية الصوت المستمدة مما يحمله من قيم جمالية ووجدانية وإنسانية فريدة، وما يميّز به من قدرة على التأثير العميق في القلوب والمشاعر دون إغفال لخطاب العقل وإثارة الفكر والتأمل؛ مما مكّن للقرآن الكريم أن ينتشر بقوته الذاتية عبر الزمان والمكان. وسيظل الصوت القرآني فريدًا مُشبعًا للأسماع والقلوب، إلى أن تقوم الساعة وتخشع الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همسًا.

وهكذا كلما ازددنا تدبرًا ازددنا إجلالا لهذا الإعجاز الصوتي الفريد في القرآن الكريم.

وسبحان من هذا كلامه: ﴿وَمَا يَعْقَلُهَا إِلَّا الْعَلِيمُونَ﴾ (٤٣) (العنكبوت).

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٥)، وابن ماجه (١٣٥)، وقال الألباني: صحيح في السلسلة الصحيحة.

## المصادر والمراجع

### المراجع العربية:

- القرآن الكريم.
- إعجاز القرآن والبلاغة النبوية / مصطفى صادق الرافعي. — ط ٩. — بيروت: دار الكتاب العربي، ١٩٧٣ م
- البيان في روائع القرآن: دراسة لغوية وأسلوبية للنص القرآني / تمام حسان. — القاهرة: عالم الكتاب، ١٩٩٣ م.
- تحفة الإخوان في بيان تجويد القرآن / حسن إبراهيم الشاعر.
- التصوير الفني في القرآن / سيد قطب. — ط ١. — القاهرة: دار الشروق، ١٩٨٨ م.
- التعبير الفني في القرآن / أمين بكري شيخ. — ط ٤. — القاهرة: دار الشروق، [د.ت.].
- الخصائص / ابن جنى، تحقيق محمد على النجار. — ط ٣، مزيدة ومنقحة. — القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٣ م.
- دراسة إحصائية لجذور تاج العروس باستخدام الكمبيوتر / على حلمي موسى، عبد الصبور شاهين. — الكويت: مطبوعات جامعة الكويت، ١٩٧٣ م.
- دلالة الألفاظ / إبراهيم أنيس. — القاهرة: مطبعة لجنة البيان العربي، ١٩٦٣ م.
- الدلالة والكلام (دراسة تأصيلية لألفاظ الكلام في العربية المعاصرة في إطار المناهج الحديثة) / محمد محمد داود. — القاهرة: دار غريب، ٢٠٠٢ م.
- دلائل الإعجاز / الجرجاني؛ تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي. — القاهرة: مكتبة القاهرة، ١٩٨٠ م
- الرسالة الشافية ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن / الجرجاني. — القاهرة، ١٩٦٨ م.
- سنن أبي داود / أبو داود. — ط ١. — القاهرة: مكتبة أولاد الشيخ للتراث، ٢٠٠٢ م.
- سنن الترمذي / الترمذي. — القاهرة: جمعية المكنز الاسلامي، ١٤٢١ هـ.
- سوسولوجيا الفن / ديفيد إنجليز، جون هجسون؛ ترجمة ليلى الموسوي؛ مراجعة محمد الجوهري.

- الكويت : المجلس الوطني للثقافة والعلوم ؛ ٢٠٠٧ م . — (عالم المعرفة ؛ ٣٤١) .
- الصاحبي في فقه اللغة العربية وسنن العرب في كلامها / ابن فارس ؛ تحقيق مصطفى الشربيني . — القاهرة : الهيئة العامة لقصور الثقافة ، ٢٠٠٣ م .
- فتح القدير / الشوكاني . — دمشق : دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، [د.ت] .
- في اللهجات العربية / إبراهيم أنيس . — ط ٤ . — القاهرة : مكتبة الأنجلو المصرية ، ط ٤ ، ١٩٧٣ م .
- القاموس المحيط / الفيروز آبادي . — ط ١ . — بيروت : دار العلم للملايين ، ١٩٨٦ م .
- كتاب الموسيقى الكبير / الفارابي . — القاهرة : دار الكتاب للطباعة والنشر ، [د.ت] .
- كمال اللغة القرآنية / محمد محمد داود . — ط ١ . — القاهرة : دار المنار ، ٢٠٠٧ م .
- لسان العرب / ابن منظور . — ط ٣ . — بيروت : دار صادر ، ١٩٩٤ م .
- مباحث في علوم القرآن / صبحي الصالح . — القاهرة : مكتبة وهبة ، ٢٠٠٤ م .
- المعجم العربي الحديث / لاروس ، ١٩٧٣ م .
- معجم الفروق الدلالية في القرآن الكريم لبيان الملامح الفارقة بين الألفاظ متقاربة المعنى والصيغ والأساليب المتشابهة / محمد محمد داود . — القاهرة : دار غريب ، ٢٠٠٨ م .
- المفارقة القرآنية : دراسة في بنية الدلالة / محمد العبد . — ط ١ . — القاهرة : مكتبة الآداب ، ٢٠٠٦ م .
- النبأ العظيم : نظرات جديدة في القرآن / محمد عبد الله دراز . — ط ٦ . — الكويت : دار القلم ، ١٩٨٤ م .
- نظام الغريب في اللغة / عيسى الربيعي .
- نيوزويك ، مارس ٢٠٠٥ م . — (عدد ٢٢) .

## المراجع الأجنبية:

Clive Modern Arabic, Holes, Structure, Functions and Varieties, London, Longman, 1995.

Structure du Langage poetique, JeanCohen, Flammation, Paris, 1966.